معارك الإسكندرية

بقلم
صديق شيبوب

طبعة أولى

ملتزم الطبع والنشر :
الوكالة العربية للدعاية والنشر
٧١ شارع أبي الدرداء تليفون ٣٦٤١٢ بالإسكندرية



الرئيس جمال عبد الناصر

رئيس الجمهورية العربية المتحدة

مقدمة

عندما يصل هذا الكتاب الى أيدى القراء تكون الجمهورية العربية المتحدة من أقصاها الى أقصاها قد شرعت تقيم الاحتفالات الفخمة لمرور عشر سنين على الثورة، فيذكر المصريون بالخير والشكر والاعتراف بالجميل كيف حزمت تلك الصفوة من الضباط من أبناء الشعب أمرها. وكيف حرصوا جميعاً على كتمان السر حتى يتم لهم الفوز، وكيف قاموا فى ساعة الصفر – أى بعد منتصف ليل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بقليل – باعظم انقلاب شهدته مصر فى تاريخها الحديث دون أراقة قطرة دم واحدة.

كانوا صفوة من الضباط الاحرار من أصحاب الرأى الثاقب، والعزيمة القوية، والايمان بوطنهم وبعدالة المهمة التى انتدبوا أنفسهم للقيام بها وبنفعها للبلاد وبالخير الذى سيعمها بعدها .

كانوا من أبناء الشعب يشعرون بما يلحقه من ظلم وحيف سواء من الطغاة المستبدين بالحكم أو من الأحزاب المتناحرة فى سبيل الوصول إليه . وكانوا ينطبعون بانطباعات أخوانهم فيتألمون لآلامهم ويتجاوبون معهم فى الضراء المحيقة بهم .

أجل ، لقد كانت جذور الثورة بعيدة وعميقة ، انها تعود الى ذلك الحيف الذى كان يصيب الكتلة الكادحة منذ زمن بعيد، والى الانتفاضات

السابقة ضد الجور والاستعمار وعملائه المروجين له ، والى الثأر لدماء الشهداء التى سالت فى ساحة الوطن دفاعاً عن حقوقه وطلباً لتحرره ، والى استحكام الخيانة والفساد والرشوة فى رجال الحكم ، والى الفضائح التى ظهرت فى حرب فلسطين والتى دلت على أن الفساد تمكن من أداة الحكم وانتهى الى ادارة الجيش وظهر فى الأسلحة الفاسدة التى زود بها .

ولقد كانت حرب فلسطين السبب المباشر للثورة ، اذ أخذ أولئك الضباط الأحرار ، وفى طليعتهم الضابط الشاب جمال عبد الناصر ، يفكرون فى مصير البلاد إذا استمر الحكم على ذلك المنوال ، أو الانهيار الذى ستئول اليه بسبب طغيان القصر بعد أن تعود فاروق وقبله فؤاد تعطيل الدستور ، والاستبداد بالحكم ، والتنكيل بالشعب ، خدمة لمصلحتها ومصلحة بطانتها وتملقا للمستعمرين ، أو بسبب تفشى طائفة من العملاء والاجراء الذين يستخدمهم الاستعمار لتحقيق رغباته فلم يلبثوا أن حزموا أمرهم ، ووضعوا أسس الثورة وأهدافها وعملوا على الوصول اليها حتى تم لهم خلع الطاغية واجراء الاصلاحات المنشودة وتغيير الأوضاع وتشييد المجتمع الجديد وإقامة صرحه على أسس اشتراكية ديمقراطية تعاونية .

وقد سارت حكومة الثوره بزعامة السيد الرئيس جمال عبد الناصر وتحت رئاسته خطوة خطوة ومرحلة مرحلة فى ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع وحققت جميع ما كان يطمح اليه الشعب فى كفاحه من « القضاء على

الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الاقطاع ، والقضاء على الاحتكار ، والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ، واقامة عدالة اجتماعية » وبذلك تحقق ما قاله السيد الرئيس فى « فلسفة الثورة » وهـو « أن القدر لا يهزل . وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء » .

وهكذا نجد أن سر نجـاح الثورة هو تلك الحكمة التى استعملها الضابط الشاب جمال عبد الناصر وزملاؤه الضباط الشبان فى وضع خططهم للاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى . والعزم الصادق فى تنفيذها وكان تجاوبهم مع أبناء الشعب عاملا كبيراً فى هذا النجاح

كانت اذن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ معركة خاضهـا الشعب ضد قوات الاستعمار والطغيان، كانت بيضاء لم تسفك فيها الدماء، وكان من ظواهرها ما جرى فى الاسكندرية وادى الى تنازل الطاغية فاروق عن العرش وطرده من البلاد الى لا رجعة .

ولقد رأينـا بمناسبة مرور عشر سنين على ذلك الحادث العظيم أن نسهم فى الاحتفال بذكراه بتقديم هذا الكتاب عن المعارك التى شهدتها الاسكندرية فى تاريخها الطويل الحافل بجلائل الأحداث ومفاخر الأعمال :

توصف الاسكندرية بأنها الشرفة التى تطل منها مصر ؛ ويطل منها الشرق على الغرب ، وأنها الباب الذى يلج منه الغرب الى مصر والشرق، وهذا الوصف هو الذى جعـل من الاسكندرية خط الدفاع الأول عن

مصر، وأولى المدن التى تتلقى ضربات الغزاة الفاتحين . وقد كافحت الاسكندرية فى كل مرة ما استطاعت أن تكافح ، وقاومت ماقدر لها أن تقاوم، وصدت العدوان كل ما وجدت الى ذاك سبيلا باقدام المجاهد المكافح واستبسال الجندى الشجاع ، سواء كانت قواتها متكافئة مع قوات العدو أو كانت تعرف أن مصير مقاومتها الفشل واستشهاد أبنائها الأبطال .

وليس هذا الكتاب سوى تسجيل صفحات البطولة التى كتبتها الاسكندرية بدماء أبنائها البواسل ؛ وهى صفحات مجد مطوية فى تاريخها، ولوحات بارعة رسمتها ريشة رسام ماهر بألوان من نور ، صفحات ولوحات خالدة ما خلدت البطولة ، باقية على وجه الزمان ما بقى الحماس والوطنية والوعى القومى .

الباب الأول

أول أسطول يزور الاسكندرية

أول اسطول يزور الاسكندرية

لم تشهد الاسكندرية هذه المعركة الأولى لأن حوادثها جرت قبل بناء الاسكندرية بمئات السنين . ولعلها لم تكن معركة بالمعنى المتواضع عليه بين فريقين من الناس ، بل كانت بين وحدات أسطول بحرى وعناصر الطبيعة أو بينها وبين الآلهة .

فقد جرت الحوادث التى سنذكرها أمام جزيرة «فاروس» التى كانت جاثمة على صفحات الماء أمام مدينة « رافوده » أو « راكوتيس » أى فى المكان الذى أنشأ فيه الاسكندر المقدونى المدينة التى أسماها باسمه وجمع فيها بين الجزيرة والمدينة القديمة .

والوصف الوحيد لهذه المعركة تجده فى ملحمة «هوميروس» الثانية « الأوذيسه » التى روى فيها مغامرات البطل « عوليس » ملك جزيرة « ايتاك » وما لقيه من أهوال فى طريق عودته إلى مملكته بعد الانتهاء من حرب طرواده .

كانت هذه الحرب التى نشبت فى القرن الثانى عشر قبل المسيح قد انتهت وطويت صفحتها وأخذ الملوك الذين اشتركوا فيها ينفضون عائدين إلى بلادهم فوصل بعضهم وطال غياب البعض الآخر .

وكان بين الذين طالت غيبتهم — كما قال هومـيروس الذى نظم ملحمته بعد وقوع حوادثها بخمسمائة سنة — المالك عوليس ، فظهرت الالهة « مينرفا » لابنه « تلماك» وحثته على البحث عن والده ونصحته بأن يبدأ بزيارة أقران هذا الوالد من أبطال حرب طرواده ليسألهم كيف عادوا إلى بلادهم وما لقوه فى طريقهم من أخطار على أن يبدأ بالملك « منيلاس » — صاحب سبارطه — لعل فيما يقصونه عليه مايساعده فى البحث عن والده :

وفعل « تلماك» ما أشارت به عليه الهة الحكمة وقصد إلى قصر « منيلاس » برفقـة أستاذه « منطور » . ولم يكد « الملك الأشقر » — كما كان يلقب « منيلاس » — يعلم طلب ابن صديقه القديم حتى أخذ يروى كيف عاد إلى قاعـدة ملكه بعد ان ظفر الملوك المتحـالفون بطرواده : واستهل حديثه بقوله :

تحتضن الأمواج أمام مصر جزيرة تدعى « فاروس » تبعد عن النهر مسافة يوم واحد تقطعه السفينة شاقة بحيزومهـا العباب مسوقة برياح عاتية .

« هناك يقوم ميناء أمين ينطلق فيـه الملاحون بمراكبهم إلى أعالى البحار بعد أن يتزودوا بالماء الصافى المنبعث من ينبوع عميق »

وقال « منيلاس » إن الرياح قذفت به إلى تلك الجزيرة وأنه أقام في مرفأها الأمين أياما على أمل أن تسعفه الرياح بالعودة إلى بلاده . ولكنها لم تفعل حتى خاف أن يعوزه الطعام .

وفيما هو كذلك ظهرت له « ايدوتيه » احدى عرائس البحر وابنة « بروتيه » شيخ البحر ، وابدت عطفها عليه ودلته على وسيلة يستعملها للقبض على والدها . وسهلت له السبيل إلى ذلك وأوصته بالا يدعه يفلت من يديه حتى يطاعه على مايجب أن يفعل ليكسب رضى الالهة فترسل إليه رياحاً مواتية .

ودبر الملك « منيلاس » كمينا لـ « بروتيه » كما نصحته «ايدوتيه» واصطحب معه بعض رجاله الأشداء حتى إذا خرج من البحر ليلا أمسكوا به .

ودارت بين الفريقين معركة دلت على حيل الالهة وقوة الانسان ، وعلى أن الانسان إذا ثابر وصل . فقد حاول شيخ البحر عبثا التخلص من « منيلاس » ورجاله . تحول إلى أسد ضخم، ثم صار تنينا فظيعا ثم فهداً ، فماء صافية تنزلق من بين الأيدى ، فشجرة وافرةالظـلال. ولكن هذا جميعه لم يجده نفعاً . ولما رأى شيخ البحر أن حيله قد نفدت وأنه خسر المعركة قال لـ « منيلاس » .

ان الأقدار تمانع فى عودتك إلى قصرك العظيم وأن تشاهد حقول موطنك الجميلة إذا لم تتقدم صعداً على أمواه « ايجيبتوس » النهر الذى

أجرى « جوبييتير » مياهه ، إلى حيث تضحى القرابين المقـدسة للالهة الخالدين الذين يقطنون السماء الواسعة . وستيسر لك الالهة إذا فعلت السبيل لمتابعة السفر الذى تتوق نفسك إلى بلوغ نهايته .

وفى غد ذلك اليوم عند ما تنفس الفجر « ذو الأنامل الوردية » تاهب « منيلاس » ورجاله للرحيل فقصدوا بمراكبهم إلى نهر «ايجيتوس» الذى أجرى «جوبيتير » مياهه وضحوا للالهة الخـالدة . فهبت ريح موانية أسعفتهم بالعودة إلى مدينة « اسبارطة » .

وهكذا انتهت أول معركة جرت بجزيرة « فاروس » التى أصبحت جزءاً من الاسكندرية ، بفوز الانسان على الأقدار الممثلة بشيخ البحر « بروتيه » وعلى عناصر الطبيعة ، بالصبر والعناد .

❁ ❁ ❁

ولعل من الخير أن نشير هنا إلى الجدل الذى دار بين علماء الآثار حول هذا الذى رواه « هوميروس » فى «الاوذيسة» خصوصا بعد اكتشاف المهندس « جونديه » بقايا ميناء كبير ؟

ففى مستهل هذا القرن عنى « جونديه » بدراسة شواطىء الاسكندرية فوجد فى الجبهة الشمالية الغربية منها . وفى جنوب المكان الذى كانت توجد فيه جزيرة « فاروس » على بعد ستمائة متر من الشاطىء ميناء يبلغ عرضه ١٥ مترا ويمتد على مسافة طويلة .

وأهمية هذا الاكتشاف عظيمة لانه يدل على أنه كان يوجد بجزيرة « فاروس » مرفأ أمين واسع الارجاء عميق الاغوار .

ويعتقد المهندس « جونديه » ان ذلك المرفأ بنى فى عهد رعمسيس الثانى ، أى حوالى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وكان هـذا الفرعون كبير العناية بتشييد الاثار الفخمة واقامة الابنية العظيمة حتى لقبه بعضهم بالملك البناء ، كما يعتقد أيضا أنه شيد لرداغارات سكان جزيرة كريت عن الشواطىء المصرية : ثم جف سطح الأرض فطغى البحر على الميناء .

وانقسم الباحثون حول هـذا الاكتشاف إلى فريقين فريق يؤيد « جونديه » فى مزاعمه وفريق يعارضه .

أما المعارضون فيقولون أن هوميروس نظم الاوذيسة بعد خمسمائة سنة من تاريخ وجود الميناء ، وأن ماقاله يحتاج الى تأييد لأنه أشار الى نبع ماء فى الجزيرة فى حين نعرف أنهـا كانت قاحلة لازرع فيها ولا ماء ، وأن أحدا من قدماء المؤرخين لم يذكر وجود هذا الميناء الضخم الذى كان حرياً أن ينوه به .

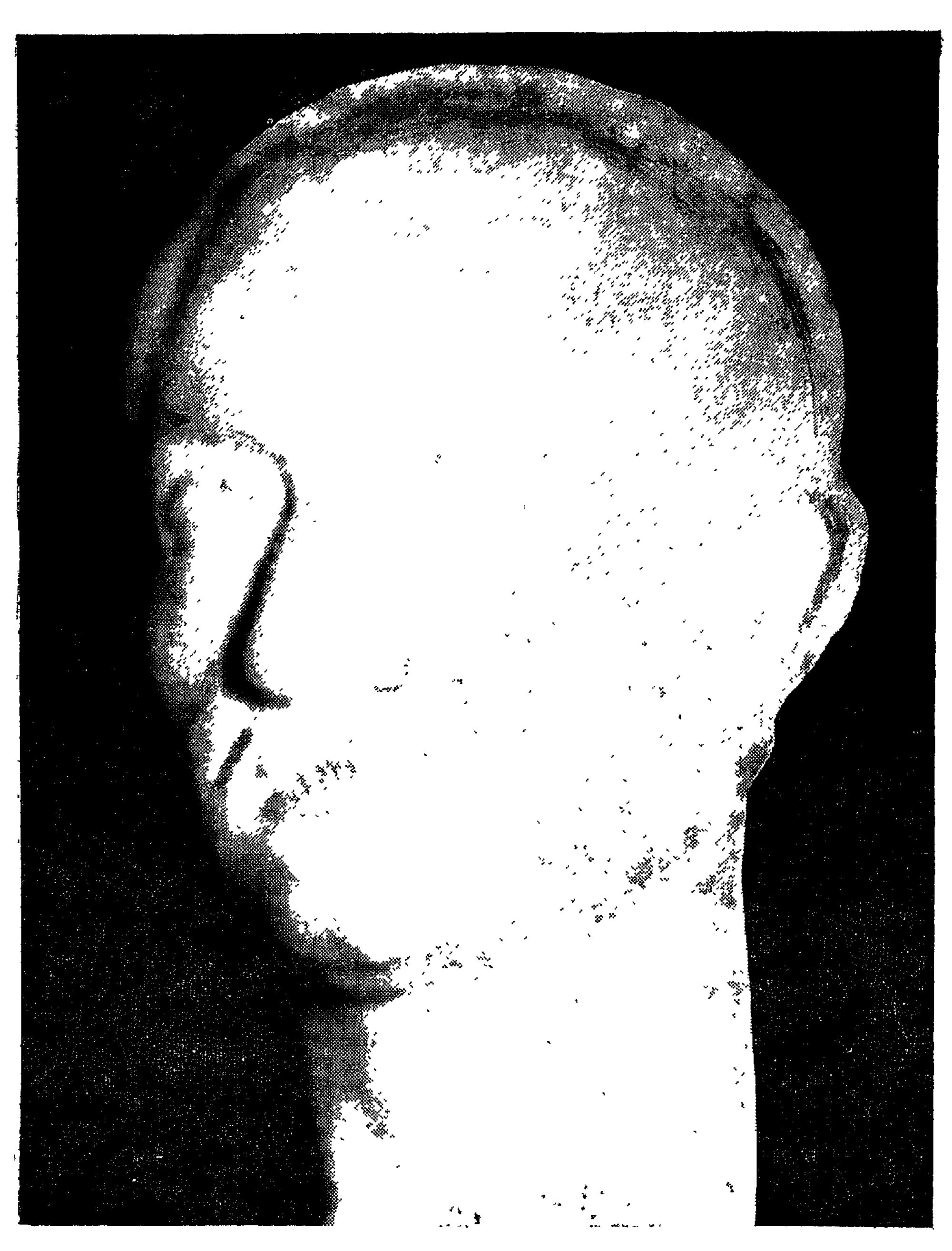
ويضيف المعارضون أن أعمال رعمسيس الثانى مدونة منقوشة ، وأنه حرص فى حياته على كتابة الكثير منها ، ولكننا لانجد فيها اشارة الى بناء ميناء « فاروس » المزعوم .ولعل ما شاهده «جونديه» ناتج عن فعل البحر واثره فى الصخور .

ولكن العلامة « بريتشا » الذى تولى ادارة متحف بلدية الاسكندرية ردحاً طويلا من الزمن ، والذى يقف من هذا الاكتشاف بين الشك واليقين ، يرد على هذا الاعتراض الاخير ويقول ان الذين قالوا به لم يشاهدوا الميناء فى قاع البحر لأن منظره لا يترك مجـــالا للشك فى أنه بقايا مرفأ كبير .

ونجد على رأس المؤيدين « ريمون ويل » وهو من كبـــار علماء الاثار . أنه يقول أن اكتشاف « جوندبه » صحيح ولكنه يخالفه فى تاريخ بنائه وفى أن يكون من عمل رعمسيس الثـــانى لأن المصريين لم يتعودوا بناء مرافئهم التجارية على البحر ، بل على النيل ، قبل مصب النهر بقليل . ويستشهد على ذلك بميناء « نوكراتيس » وكانت هذه المدينة حيث « فوه » الآن . فيجب أن نبحث عن بنائين من غير المصريين انشأوا ميناء « فاروس » . وكانت اليونان أيا مئذ منقسمة الى دويلات صغيرة ذات تجارة ضعيفة لا تتحمل بناء مرفأ كبير كذلك المرفأ وكان لدى الفنيقيين من المرافىء مايكفى لتجارتهم . ولذلك يعتقد « ويل » أن بناة المرفأ كانوا الاكريتيين فى عهد يقـــع بين القرن العشرين والقرن الخامس عشر قبل المسيح .



كليو باطرا



يوليوس قيصر

الباب الثاني

معارك يوليوس قيصر

معارك يوليوس قيصر

كيف* ولماذا جاء يوليوس قيصر الى الاسكندرية؟هذا حديث ضرورى للتمهيد للمعركة التى نشبت بينه وبين جيش البطالمة فيها : وهو كذلك حديث طويل نرى من الخير أن نوجزه فيما يلى .

ورث البطالمة ملك الاسكندرية عن الاسكندر وكان القائد العظيم قد أسسها سنة ٣٣٢ ق . م ؛ وقد تولى أولهم « سوتر » شئون مصر بصفته نائباً عن فيليب الثانى ثم اسكندر الثانى خليفتى الاسكندر ، ولم يستقل بها ويتخذ لقب ملك الا سنة ٣٠٤ ق . م : وكان حذرا وحكيما فساس الملك بحذق ، ووضع خطة سياسية اهتدى بها خلفاؤه حتى تغلب النزق على الرأى السديد ، واستبدالهوى بتصرفاتهم ، وركبت الشهوة عقولهم وتحكمت باعمالهم :

وكان هؤلاء البطالمة من أصل يونانى ، لذلك نجد الاوائل منهم يجمعون بين العبث والهوى وبين سياسةالدولة وتدبير أمورها،ويشجعون العلوم والفنون ، فيستقدمون أكابرعلماء عصرهم وخلاصة أدباء اليونان وفنانيها الى الاسكندرية ، ويبنون القصور الفخمة ؛ وينشئون المعابد الضخمة ، ويؤسسون المدرسة المشهورة ؛ ويجمعون المكتبة التى خلد ذكرها على وجه الزمان :

ولكن أولئك الملوك ما لبثوا أن أخذوا يتناحرون حول تولى العرش فاذا سلسلة من الجرائم لا نهاية لها : فاقتتل الاباء والامهات ، والبنون والازواج ، والأخوة والأخوات ، إشباعا لشهواتهم : شهوة الملك ، وشهوة النزق والعبث . ويجـــد المؤرخون أن جرائم القتل الفظيعة التى كان البطالمة يرتكبونها ظاهرة عجيبة فى عهد كانت اواصر الأسرة فيه متينة الروابط وأواشج القربى محكمة الوضع .

وهناك ظاهرة أخرى فى أسرة البطالمة لا بد من الاشارة اليهـــا ، وهى تهافت النساء على تولى الحكم . وفى هـــذا صدوف عن التقاليد اليونانية التى كانت تستبعد النساء عن الاشتغال بالسياسة ولا تجـــد فى المرأة غير مبهجة من مباهج الاسرة حيث تتولى مهام الأم والزوجة وربة البيت ولعل البطالمة تأثروا فى هـــذه الظاهرة بالبيئة المصرية حيث كانت المرأة تنعم من قديم الازمنة بحرية أوسع نطاقاً بكثير مما أتيح لزميلتها اليونانية ويرى المؤرخ « أوسكار دى واتيمهر » أن هذه الظاهرة سبب الرغبة الجامحة التى أبدتها نساء البطالمة فى تولى الحكم وظمئهن الشديد للوصول الى السلطة والملك . وكانت كليوباطرا أقوى مثـــل يضرب لهذا الظمأ وتلك الرغبة ، وكانا عندها لا حد لهما .

وجرى سنة ٨٠ ق . م . أن قتل الجند بطليموس الثانى عشر ولم يكن قـــــد أخلف وريثاً للعرش . ولكن الأحزاب السياسية الكبيرة بالاسكندرية رات حفظاً للعرش أن يتولاه أحد أبناء البطالمة غير الشرعيين

وكان هناك ولدان من هذا النوع لبطليموس العاشر تولى أحدهما على قبرص وولى الآخر على مصر ؛

على أن روما رفضت الاعتراف بهذا الأخير بحجة أنه ابن غير شرعى وان بطليموس الثانى عشر حين رأى العرش آيلا الى الزوال لعدم وجود خليفة من أبناء البطالمة الشرعيين أوصى بالملك لروما اعترافاً بفضل « سيلا » عليه . وكانت مثل هذه الوصيات سارية أيامئذ ، أو أن روما كانت تدعيها لتستولى على الممالك فى لشرق الأوسط دون أن تخوض غمار حرب كما فعلت فى برغامه وبيطيميا ، وكما كانت تريد أن تفعل بمصر ؛

كان عملاء روما بالاسكندرية يعملون بمهارة فائقة . ولعلهم فطنوا الى أن الوقت لم يحن لضمها الى روما فأخذوا يمهدون لذلك بمختلف الوسائل وأهمها التلميح بين حين وآخر الى أن الملك ابن غير شرعى والتهديد بخعله . وبذلك استطاع أولئك العملاء أن يدعموا نفوذ روما وأن يفيدوا أموالا طائلة يبتذونها من الملك .

وكان هذا البطليموس الثالث عشر يعيش حياة عبث ونزق وكان قد أطلق على نفسه لقب « فيلوباطور » ، أى المحب لا بيه ، ولكن الشعب أسماه « أوليت » أى النافخ فى المزمار . وكان النفخ فى المزمار فى الميثولوجيا اليونانية من خصائص الالهة . ولكن الشعب السكندرى أراد منها التحقير . وقد آلمه أن يجد مليكه يتبذل بين البغايا ومحترفات الغناء ويشترك معهن بزماره . ولعله كان يتعزى عن عدم استطاعته حمل

الصولجان بذلك المزمار الذى كان يستخرج منه الحانا شجية .

وثار الشعب السكندرى بهذا الملك لتلك الحياة التى كان يحياها ولكثرة تزلفه لروما ومساعدتها على التوسع فى الشرق فاضطر الى الهرب اليها سنة ٥٩ . وفيها التقى بيوليوس قيصر وبومبيو واتفق معهما على أن يدفع لهما مبلغ ستة آلاف مثقال — أى ما يساوى ٢٣ مليون فرنك ذهب — مقابل تعهد قيصر بأن يحمل مجلس الشيوخ على الاعتراف به ملكا على مصر وصديقاً وحليفاً للشعب الرومانى . وهكذا عاد النافخ بالمزمار الى الاسكندرية سنة ٥٧ ق.م بمساعدة الفرق الرومانية وحمايتها .

وقـــد توفى سنة ٥١ ق . م . عن ابنتـــين وصبيين ، كانت كليوباطرا أكبر البنتين ، وكانت فى السابعة عشرة من عمرها عند موت أبيها فى حين كان أخوها فى العاشرة . ولكن الاب أوصى بالعرش من بعده لكليوباطرا وأخيهـــا على أن يتزوجا . واعترفت روما بصحة الوصية ولم تعترض عليها كما أقرها المصريون . وكانت الأمور لتستقر بالاسكندرية بعد هذه الوصية لولا ما سجله التاريخ عن طموح كليوباطرا وذكائها البارع الذى أخذت تستعمله فى أقصاء أخيها عن الملك وتفردها به . وهكذا دب الخلاف بين الأخ والأخت ثم تحول الى حرب سافرة .

وكان الزعماء فى روما أخذوا يختلفون فى ذلك العهد ، وبخاصة بومبيو ويوليوس قيصر . فنشبت حرب بينهما وتغلب قيصر على بومبيو فى واقعة « فرسال » فهرب بومبيو من وجهه ، وانتهى به المطاف

الى مصر حيث قتله أتباع الملك بطليموس الرابع عشر ظنا منهم أنهم بذلك أنهم يتقربون من يوليوس فيساعد الملك الصبي ضد أخته وغريمته كليوباطرا .

وكان قيصر يتتبع بومبيو حتى اذا سمع بتوجهه الى مصر سار فى أثره وهكذا ظهرت قواته أمام الاسكندرية وأخذ جنوده ينزلون فيها وكان فى استقبالهم تيودوت — وكان فيلسوفا يونانيا من أتباع بطليموس الرابع عشر ، وصاحب فكرة قتل بومبيو للتقرب من قيصر — وكان حاملا رأس بومبيو ، ويقال أن قيصر حين رآه بكى . وقال بعض المؤرخين أن من يعرف طبيعة قيصر لا يتعجب لتلك الدموع التى ذرفها .

وهكذا دخل قيصر الاسكندرية فى سبتمبر سنة ٤٨ ق. م فادهشته عظمتها وخلبته محاسنها وعسكرت قواته فيها ورست سفنه فى مينائها الكبير ، وأقام هو فى القصر الملكى .

وقد استولى الوجوم على الاسكندريين عندما رأوا الاعلام الرومانية تحتل فجأة مدينتهم . ثم مالبثو أن دبروا أمرهم فى الخفاء. وابتدأوا مقاومتهم السرية ، وأخذوا يوقعون بالجنود الرومانيين كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . وكان معروفا عنهم أنهم سريعو الانفعال وأنهم تعودوا أن يثوروا على الأوضاع التى لا تروقهم . ولذلك أخذ قيصر يحاول التودد إليهم . فزار الهياكل ، وطاف بقبر الاسكندر واثنى على عظمته، ودعا علماء المتحف الى القصر الملكى وصار يشترك معهم فى الندوات التى يعقدونها لبحث المسائل الفلسفية والتاريخية ، وكان واسع الاطلاع على علوم زمانه متضلعاً فيها .

على أنه الى جانب مظاهر الود هـــذه أرسل يطلب النجـــدة من اسيا الصغرى .

وعكف قيصر على اصلاح ذات البين بين كليوباطرا وأخيها . ويخرج عن نطاق هذا البحث وصف دخول كليوباطرا عليه فى ضخامة وكيف برزت منها كأنها حلم لذيذ ، وكيف أحبها يوليوس ، ولكنه تظاهر باحترام وصية الملك السابق وأصلح بين الأخ وأخته . على أن مستشارى بطليموس لم يرضوا عن هذا الاتفاق لأنهم كانوا يعلمون أن معناه فناء بطليموس وحزبه ، وربمـــا قتله ؛ وتغلب كليوباطرا على شئون المملكة وربط مصر بعربة روما .

وكان مستشارو الملك الفتى ثلاثة أولهم «بوتان» الخصى، وكان أقرب الناس الى الملك والمشرف الأول على شئون ملكه ، والثانى «أشيلاس» القائد العام ، وكان مصرياً جريئاً ماهرا فى فنون الحرب ، والثالث «تيودوت» الفيلسوف اليونانى ؛ وهو الذى ذكرنا من قبل أنه صاحب فكرة قبول بطليموس إلتجاء بومبيو اليه . واستقباله ببيلوز ؛ والترحيب به ؛ ثم الفتك به وهو فى الزورق الذى نقله من السفينة الى الميناء تقربا بذلك إلى قيصر وأملا فى أن يساعد بطليموس ضد شقيقته كليوباطرا ؛ وقد نفذت هذه الخطة فى القارب الذى ركبه بومبيو وحده دون اتباعه للانتقال من سفينته الى المدينة على مشهد من هؤلاء الاتباع الذين رأوا أنفسهم عاجزين عن الدفاع عنه .

وقد عمد «بوتان» بعد ما تقدم الى مناوأة قيصر وجنوده واشاعة ما نسميه بلغة اليوم بالمقاومة السرية .

كان بوتان يثير حنق الجنود الرومانيين فى كل مناسبة فكان مثلا

يقدم لهم خبزا لا يصلح للاكل فاذا احتجوا أجابهم أن من حسن حظهم أن يجدوا مثل هذا الخبز في أرض غريبة . وسحب الاواني الذهبية من موائد القصر واستعاض عنها باواني من الصلصال ؛ وزعم أنه اضطر الى ارسالها لتتحول الى سبائك ونقود ارضاء لمطالب قيصر المالية ؛ وسحب كذلك جميع الاشياء الثمينة من الهياكل بدعوى ارضاء بخل قيصر وجشعه ؛ وهكذا شعر الشعب الاسكندري أنه اصيب بطعنة في الصميم من حساسيته الدينية . وأخيرا نصح «بوتان» قيصر أن يؤجل اهتمامه بتنظيم مصر وأن ينشط لمحاربة اعدائه في البلاد الاخرى فأجابه قيصر بلهجة احتقار أنه لا ينتظر النصح من أمثاله .

ورأى بوتان أن الرأي العام قد عبئ ضد قيصر ، وأن الوقت قد حان لمهاجمة قواته وطرده من مصر فأرسل الى قائد الجيش اشيلاس أن يزحف بقواته من بيلوز الى الاسكندرية . وأحس قيصر بالخطر الذي يهدده من جراء ذلك فأرسل الى القائد أمرا باسم بطليموس بأن يعود بالجيش الى معسكراته ولكن أشيلاس لم يعبأ بهذا الامر لأنه كان يعلم مصدره .

وصل أشيلاس على رأس جيشه إلى الاسكندرية في أوائل شهر نوفمبر سنة ٤٨ ق. م. وكان جيشه يتألف من عشرين ألفا من المشاة وألفين من الفرسان وإذا كانت قيمتهم في الحرب والطعان متفاوتة فان عددهم يكفي للتغلب على القلة من المحاربين الذين يتألف منهم جيش قيصر .

ولعل الاسكندريين بأكملهم — فيما عدا اليهود — إنضموا الى جيش اشيلاس عندما تدفق جنوده من باب كانوب إلى المدينة . وكان في استطاعة

قيصر أن يغادر الاسكندرية وقتئذ ولكنه أبى على نفسه الهرب ووقف يواجه الموقف بفرقتين من الفرق الرومانية .

كان قيصر مستوليا على حى القصور حيث أقام قيادته ، وكان يسيطر على الميناء الكبير الشرقى ، والهيباستاد - وهو الجسر الذى يربط بين المدينة وجزيرة فاروس - وعلى الجزيرة نفسها .فلما وصل اشيلاس إلى الاسكندرية إحتل المدينة بأكملها مع الميناء الغربى « أينوست» ثم ضرب الحصار على المنطقة التى يعسكر فيها جنود قيصر ولم يلبث أن هدم المبانى التى كانت على خطوط الدفاع الاولى .

كانت هذه المعركة التى خاض قيصر غمارها شبيهة بحرب طراوده لأنه عاناها فى سبيل إمرأة ، هى كليوباطرا ، وكانت لا تقل جمالا عن « هيلين » القديمة . وكانت المعركة ذات وضع غريب لأن ميدانها مدينة يبلغ عدد سكانها مليونا من الناس ، مدينة واسعة الارجاء ممتدة الأطراف ذات مركز تجارى هام لأنها ملتقى الطرق المؤدية الى ثلاث قارات . وكان غريبا أيامئذ أن تدور المعارك الحربية فى قلب المدن .أما اليوم وبعد الأخذ بنظرية الدفاع عن المدن ذات الموقع الاستراتيجى ، والقتال من بيت الى بيت ، بل من جزء الى آخر من البيت الواحد ، كما حدث فى ستالينجراد ، وبورسعيد ، صار فى مقدورنا أن نحسن فهم موقعة الاسكندرية التى تقدمت معركة بورسعيد بألفى عام تقريبا .

كان مركز قيصر منيعا فى الحى الملكى فزاده تحصينا . أما الجيش المصرى والاسكندريون فقد بنو بحجارة المنازل المتهدمة ثلاثة أسوار متلاصقة يبلغ ارتفاعها فى بعض الاحيان أربعين قدما .

رأى المصريون أن مراكز قيصر منيعة وأن من الصعب التغلب عليها من

البر فحاولوا ذلك من البحر بالاستيلاء على الميناء الكبير ليقطعوا عنه المدد من الخارج فيضطر أخيرا إلى التسليم .

وهكذا لم يبق أمام قيصر سوى أن ينتصر أو يموت ؛ لأنه وجد نفسه أمام جيش يبلغ عدده ستة أضعاف جيشه يؤيده الاسكندريون بأكملهم ، وتسهل عليه وسائل التموين .

وقد فطن قيصر إلى خطة المصريين ، خصوصا بعد إستيلائهم على الهيباستاد وجزيرة فاروس . وكان في الميناء الشرقى أكثر من خمسين سفينة حربية كانت قد أرسلت لمساعدة بومبيو فى واقعة « فرسال » ثم عادت دون أن تشترك فيها فأحرقها قيصر مخافة أن يستولى عليها المصريون ويستعملونها ضده .

وقد امتد لهب الحرق من الميناء إلى المدينة وأصاب خاصة المنطقة التى يحتلها قيصر واتصل بالمكتبة والمتحف فأتلف مافيها من الكتب التى لا يعوض ، وذهب مع تلك الكتب الكثير من علوم الأقدمين مما لا سبيل إلى تقدير قيمته . وقد اختلف المؤرخون حول مدى اتساع الحريق فبعضهم يقول أنه قضى على المكتبة ، ومنهم من يرى أنه اقتصر على الملفات التى كانت معروضة على أرصفة الميناء .

وليس هنا مجال جدل كهذا وإنما نكتفى بالاشارة إلى أن أنطونيو أهدى كليوباطرا مكتبة برغامة فيما بعد وأن بعض المؤرخين رأوا فى هذه الهدية تعويضاً عن الحريق الذى أصاب مكتبة الاسكندرية بفعل واقعة قيصر .

وبينما كانت الواقعة دائرة وصلت الفرقة الرومانية السابعة والثلاثون إلى

الاسكندرية وانضمت الى قوات قيصرفقرر أن يستعيد الهيباستاد وجزيرة فاروس ، وكان لزاماً عليه للوصــول إلى هذا الهدف القضاء على الاسطول المصرى . فجهز سفنه وقصدبها إلى الميناء الغربى الصغير حيث نشبت موقعة بحرية بين الاسطولين المصرى والرومانى على مرأى من السكندريين الذين كانوا يشاهدون من سطوح منازلهم هذا المنظر الفريد .

وقد نجح هجوم قيصر فى بادىء الامر واستولى على الهيباستاد وجزيرة فاروس ، وتهدمت أثناء هذا الهجوم مبانى الجزيرة فقتل من سكانها من قتل وأسر من أسر ، وغرق الذين حاولوا الفرار بحراً .

ولكن المصريين لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وقاموا بهجوم مضاد وجعلوا الرومانيين فى موقف خطير واضطروهم إلى التخلى عن الهيباستاد . ووصف المؤرخون إرتدادهم بأنه كان اندحاراً .

وقد حاول قيصر جمع شمل جنوده فلم يستطع فركب قاربا لينتقل بحراً من الجزيرة الى القصر أى من الطرف الغــربى من الميناء الشرقى الى الطرف الآخــر .

ويظهر أن القارب إمتلأ بالماء وأشرف على الغرق فقفز قيصر الى الماء وقطع المسافة سباحة . وكان سباحا ماهراً ورياضيا قوى العضلات . وجاء فى بعض الروايات أنه كان يسبح بيد واحدة فى حين يرفع فوق سطح الماء باليــــد الأخرى دثار القيادة الذى كان يتدثر به وبعض الوثائق الهامة . وهكذا عاد

إلى مقر قيادته وأقام فيه منتظراً الامداد من اسيا الصغرى .

كان القصر الملكى أخذ يضطرب بمختلف الحوادث بعد غياب قيصر عنه من ذلك أن « أرسينوه » أخت كليوباطرا الصغيرة — استطاعت أن تخرج من القصر مع تابعها « جانيميد » الخصى واللحاق بالجيش المصرى فى المدينة ؛ كما استطاعت فى غياب الملك بطليموس أن تتولى الملك فلم يلبث أن نشب الخلاف بين « جانيميد » والقائد «اشيلاس» فامرت « ارسينوه » بقتل القائد .

وأخذ « جانيميد » يناوىء الرومان فخلط ماء البحر بمياه النيل التى تنقل الى القصر بالاقنية فأمر قيصر بحفر الآبار للاستعاضة بها عن المياه التى تأتى من الخارج .

والقى قيصر القبض على « بوتان » بحجة اتصاله بالاعداء وأمر باعدامه . ثم شاء أن يتخلص من بطليموس فسمح له بالخروج من القصر واللحاق بجيشه وزوده بالنصائح للعمل لخير شعبه وتقدمه . ولم يكد الملك الفتى يصل الى معسكر جيشه حتى اختفى « جانيميد » ولم يعرف هل لاذ بالفرار أم قتل .

وفى أثناء ذلك كانت الامداد تتجه من آسيا الى مصر . هذه احدى الفرق الرومانية يرسلها « كالفينوس » نائب قيصر فى آسيا الصغرى وتصل الى بيسلوز ثم تركب البحر قاصدة الى الاسكندرية ، ولكنها لم تستطيع النزول فيها لأن المراكب التى تحملها اصطدمت فى

كانوب (أبو قير) فى شهر مارس ٤٧ ق.م. بالأسطول المصرى الذى كان يضرب الحصار على قيصر ويحـول دون وصول الأمداد إليه . فارتدت على أعقابها .

وهب « ميتريدات » ، الوالى الرومانى على برغامه الى نجدة قيصر فجمع جيشاً خليطاً من العناصر التى استطاع جمعها فى آسيا الصغرى ، وسار على رأسها الى مصر فاستولى على بيلوز بدون مقاومة تذكر ثم زحف الى الجنوب محازيا فرع النيـل البيلوزى حتى وصل الى تنيس حيث اشتبك فى معركة مع الجيش المصرى فى الموضع المعـروف باسم « معسكر اليهود » وتغلب عليه وعبر النيل وسار فى اتجاه الاسكندرية بجانب الفرع الكانوبى .

ولا نجد بعد هذا تفصيلات وافية فى كتب التاريخ عن الاستعدادات الاستراتيجية التى اتخذها الفريقان . وكل ما نعرفه منها أن بطليموس أسرع بجيشه ليصد زحف « ميتريدات » ، ولعله ترك وحدات من هذا الجيش للاستمرار فى الحصار الذى ضربه على القوات الرومانية ، ولكن المؤرخين منـذ ذلك الحين لم يذكروا شيئاً عن الجيش المصرى المرابط بالاسكندرية .

أما قيصر فقد قرر الخروج من الاسكندرية لمساعدة جيش «ميتريدات» ، وهنا نجهل أيضاً كيف تم خروجه ، ولعله استبقى قوات للدفاع عن الحى الملكى الذى كان يقيم فيه . وكل ما قيل فى هذا الصدد أن قيصر

سار الى جانب الشاطئ تؤيده سفنه الحربية متجها نحو الشرق ، ولكنه عندما جن الليل أطفأ أنوار معسكره وقفل راجعاً نحو الغرب واستدار بالاسكندرية مسرعاً فى سيره حتى اتصل بجيش ميتريدات على النيــل وهاجم الجيشان الجيش المصرى الذى كان قدارتد الى الدلتا ، فاخترقت قوات قيصر صفوفه ثم استولى فى اليوم التالى بخدعة حربية على مقر القيادة المصرية فلاذ الملك بطليموس بالفرار وحاول اجتياز النيل سباحـــة فغرق وأرســـل قيصر درعه الذهبى الى الاسكندرية دليلا على موته :

وعاد قيصر الى الاسكندرية ودخلها دخول المنتصر .

* * *

وكان الاسكندريون يشهدون لاول مرة فى تاريخ مدينتهم قوات أجنبية تدخلها دخول الظافر بعد معارك خذلت فيها القوات المصرية . فارتدوا ثياب الحداد وقبعوا فى منازلهم حتى لايشاهدوا الفرق الرومانية تسير فى الشوارع .ولعله كان يتنازعهم الى جانب الحزن عامل الخوف من أن يبيح قيصر المدينة لجيوشه . ولكنه لم يعامــل الاسكندرية كما كانت تعامل المدن التى تفتح عنوة بعد الظفر بها ، بل استبقى عليها : فلم يبحها لجنوده ولم يرهقها نهبا وتدميراً .

أجل لقد كان قيصر انسانا يحسن معاملة من يظفر بهم إذا لم تكن

هناك دواع سياسية تضطره الى استعمال القسوة والبطش، وكان سياسياً يعرف أن الغرض الاصيل من مجيئه الى مصر كان لنشر السلام فى ربوعها لا الحرب ، وكان فنانا يقدر جمال المدن وروعة أبنيتها ، وكان الى هذا وذاك عاشقاً يحرص على أن تكون قاعدة ملك من أحب سليمة من الدمار نامية مزدهرة .

ولذلك نجد قيصر يخاطب الاسكندريين فيطمئنهم ويطلب منهم العمل على اصلاح مدينتهم التى أصابها بعض الخراب من جراء الحرب التى نشبت فيها .

۞ ۞ ۞

يجب أن نطوى ست عشرة سنة أو أكثر حتى نصل الى سنة ٣١ ق . م . ونشهد الفرق الرومانية تدخل الاسكندرية من جديد دخول الظافر المنتصر . وكانت كليوباطرا قد تولت العرش طول هذه المدة، وعانت من سياسة الملك ما عانت، وتوسلت للاحتفاظ به بالحب والجمال والخداع والبطش حتى نفدت جميع هذه الوسائل، وانتحر انطونيو، واستولى اكتافيو على مصر ، وأخذ يستعد ليضم الملكة الى موكب النصر عند عودته الى روما. ولكنها لم تمكنه من ذلك .اما الاسكندريون وكانوا خليطاً عجيباً جاءوا الى عاصمة الشرق من مختلف البلدان لأغراض متنوعة ، فقد شاهدوا الجنود الرومانيين فى مدينتهم وهم على ما كانوا

موقبل يتنازعهم عاملا الحزن والخوف : ولكن أوكتافيو استهواه جمال المدينة كما استهوى قيصر من قبل فأبقى عليها وتودد الى سكانها فدخلها والى جانبه أستاذه الفيلسوف أريوس السكندرى ، وألقى فيها خطاباً باللغة اليونانية بالرغم من أنه لم يكن يجيد هذه اللغة .

ولكن هذا لم يطمئن الاسكندريين الذين شهدوا واجفين زوال استقلالهم وابتداء الاستعمار الرومانى :

البابُ الثّالِثُ

الفتح العربى

الفتح العربى

فتح العرب الاسكندرية مرتين مرة صلحا والأخرى عنوة

لم يكد يتم لعمرو بن العاص الاستيلاء صلحا على حصن نابليون فى التاسع من أبريل سنة ٦٤١م. بعد حصار دام سبعة شهور حتى قرر متابعة زحفه الى الاسكندرية ، وكان الروم الذين كانوا يقيمون فى داخل مصر قد نزحوا اليها ، فكان أول عمل قام به عمرو فى هذا السبيل أن أمر باقامة جسر من السفن على النيل يصل بين الحصن والروضة ؛ ثم بين الروضة والجيزة ليستطيع الاشراف على النهر وما ينتقل فيه من سفن وبضاعة .

وقد جد عمرو فى السير بجيشه حتى يستطيع الوصول إلى الاسكندرية قبل عهد الفيضان وتجمعت جيوش الروم فى الطريق لمنعه عن السير ولكنه كان يتغلب عليها ويدفعها أمامه . وقد تم له تعبيد الطريق بعد فتح مدينة نقيوس -- مدينة حنا النقيوسى الذى تعد اليوميات التى كتبها مصدراً هاما فى تاريخ فتح العرب لمصر لأنه عاصر هذا الفتح وشهده وعاش أحداثه — وكانت تقع على النيل فى الشمال الغربى من منوف حيث قرية شبشير اليوم . وكان فتح هذه المدينة المنيعة أكبر ضربة أصابت الروم فتمزقت أوصال جيوشهم وتفرقت سفنهم المنتشرة فى النهر وأخذوا يرتدون أمام العرب حتى وصلوا الى الاسكندرية .

وكانت الاسكندرية وقتئذ على جانب كبير من المنعة تدور بها الاسوار الضخمة وعليها المجانيق القوية المريعة وتحميها الغياض والبحيرات . والترعة

ويحول البحر دون أحكام ضرب الحصار عليها وكان فيها أكثر من خمسين ألف مقاتل[٩]، وكانت الاقوات وفيرة فيها تأتيها من البحر.

على أن العرب كانوا قد فتحوا من قبل مدنا لا تقل مناعة عن الاسكندرية ولم تعق حصونها دون ذلك ؛ وكانوا لذلك شديدى الايمان بقوتهم والثقة بتفوقهم. ولذلك لم يكادوا يصلوا الى الاسكندرية حتى هاجموا الاسوار فتصدت لهم الآلات التى كانت عليها ؛ ورمت المجانيق عليهم الحجارة الكبيرة فارتدوا مبتعدين عن مدى رمى الحجارة واكتفوا بضرب الحصار عليها وقطع الصلة بينها وبين الروم فى سائر بلاد الدلتا.

ومرت الايام والحالة على ما هى عليه فقرر عمرو أن يخلف أمام الاسكندرية جيشاً كافياً للرباط وأن يسير بالباقى من جيشه ليستولى على بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر على الجيش السير فى عهد الفيضان الذى أصبح وشيكا.

ويخرج عن نطاق هذا البحث ذكر المعارك التى خاض العرب غمارها فى تلك الرحلة ؛ وماذا تم فى معسكر الروم ، وكيف عاد البطريرك «قيرس» — وهو فى نظر البعض المعنى باسم المقوقس — الى الاسكندرية، وإنما يهمنا أن نقول أن عمرو بن العاص عاد الى حصن نابليون عند ابتداء الفيضان حيث وافاه «قيرس» وأخذا يتفاوضان فى تسليم الاسكندرية صلحاً حتى تم الاتفاق على جميع شروطه ؛ وكتب بذلك عقد فى الثامن من شهر نوفمبر سنة ٦٤١ . وقد لخص «بتلر» فى كتابه «فتح العرب لمصر» تلك الشروط ونظمها كما يلى :

١ ــ أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ ــ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ (أى أحد عشر شهراً من الشهور القمرية) وهى المدة التى وقفت للهدنة لاستشارة الخليفــة عمر بن الخطاب وملك الروم هرقــل بشأنهــا وموافقتهما عليها .

٣ ــ أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ؛ ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية ، وأن يكف الروم عن القتال .

٤ ــ أن ترحل مسلحة الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصـــر أثناء رحلته .

٥ ــ أن لا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردها .

٦ ــ أن لا يتعرض المسلمون لكنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .

٧ ــ أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية .

٨ ــ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لإنفاذ العقد .

وبعد التوقيع على هذا العقد أوفد عمرو بن العاص رسولا إلى عمر بن الخطاب كما سافر قيرس بنفسه الى القسطنطينية للحصول على موافقة

الامبراطور . وقد جاءت الموافقتان وتم ترتيب عملية التسليم دون أن يعلم بها السكندريون . وقد عرفوا ذلك بغتة حين اقتربت فئة من العرب من المدينة . فلم يكد يراهم الحرس على أسوار المدينة حتى دقوا الأبواق وأسرع الجنود ليأخذوا أماكنهم من الأسوار للدفاع . ولكن العرب ظلوا فى طريقهم غير عابئين بتلك الجلبة ، وكانوا يحملون أعلام الهدنة والسلام ، حتى اذا أصبحوا على مقربة من جنود الروم أخبروهم بما كان من عقد الصلح .

وقد ثار الاسكندريون عندما علموا بما دبر لمدينتهم بغير درايتهم ولكن قيرس عرف كيف يخفف عليهم الأمر ويشرح لهم فوائد التسليم مستعينا على ذلك ببلاغته الخطابية وكبر سنه وطول تجاربه وعلو مقامه وبذلك استطاع إقناعهم برجاحة رأيه وصدق نظريته .

وهكذا تم فتح الاسكندرية صلحا فى العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ونفذت شروط الهدنة بأمانة ، وأخذت السفن تنقل من يريد الجلاء عن الاسكندرية إلى رودس أو القسطنطينية . وأصيب قيرس بمرض الدوسنطاريا ومات يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ٦٤٢ . وهكذا لم يشهد زوال ملك الروم نهائيا عن الاسكندرية .

وقد جهزت سفن أسطول الروم ، وأذن لها بمغادرة ميناء الاسكندرية حاملة قائد الجيش وكبار ضباطه والبقية الباقية من فلوله وكان ذلك فى السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢، وفى التاسع والعشرين من هذا الشهر انقضت مدة الهدنة وأنتهت الاحد عشر شهراً وفتحت المدينة أبوابها ودخلها عمرو على رأس جيشه . وطاف شوارعها

التى يحيط بها من الجانبين القصور المنيفة والاعمدة الرخامية البراقة ؛ فراق للعرب ذلك الجمال الأخاذ وتلك العظمة الرائعة التى انطبعت بها الاسكندرية وتميزت بسماتها ، وامتلأت كتب التاريخ العربية وغير العربية بوصفها .

. . .

دارت الايام مدى ثلاث سنين أو أكثر . سلسلت فيها الأمور لعمرو بن العاص ؛ وأخذ يدير شئون الحكم وينظم الجزية ، وقتل خلالها عمر بن الخطاب فى ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ وبويع بالخلافة من بعده لعثمان بن عفان . وكان عمر فى آخر حياته قد حد من سلطان عمرو بن العاص فولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح(١) حاكم الصعيد وجعل اليه جباية الخراج . فلما جاء عثمان عزل عمرو وولى عبد الله على مصر ، فكان فى طليعة أعماله زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية. ولعل جماعة من زعمائهم حين أحسوا بثقل العبء الملقى على عاتقهم كتبوا الى الامبراطور قسطنطين رسالة يطلبون فيها منه إنقاذهم من حكم العرب ويقولون أن حامية الاسكندرية قليلة العدد - وكان قوامها ألف رجل — وأن وسائل الدفاع ضعيفة . فامر الامبراطور باعداد حملة قوية وعقد لواءها للقائد « مانويل » كما أمر بكتمان خبرها ، وهكذا فوجىء العرب فى أواخر سنة ٦٤٥ م بوصول أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة يظهر أمام الاسكندرية ويرسو فى مينائها ويبدأ بأنزال قواته الى المدينة .

---

(١) أنظر عن عبد الله بن سعد بن أبى سرح الفصل التالى

ولم تكن للعرب معرفة بشئون البحر ولا توجد لديهم سفينة واحدة لتأتيهم بأخبار الحملة التي دبرت والاسطول الذى مخر بها عباب البحار وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد نهى معاوية بن أبي سفيان ، وكان على الشام ، عن تجهيز السفن (١) .

وهكذا أخذ العـرب على غرة فاستولى الروم على الاسكـندرية وتوغلوا فى الدلتا ؛ واستولوا على المدن والقرى فيها فنهبوا ما شاء لهم أن ينهبوا ونعموا ما شاء لهم أن ينعموا . مضيعين الفرص السانحة مسيئين الى السكان من مصريين وغير مصريين ، وسواء لديهم الاقباط منهم او العرب .

وكان عبد الله بن سعد أعجز من أن يواجه الموقف وأن يصـد هجوم الروم ؛ وكان قد أهمل تحصين البلاد بحيث لم يجد جيش « مانويل » أمامه ما يصـده . لذلك لم يكد يصل هذا الجيش الى الاسكندرية حتى بادر أهل مصر إلى المطالبة بعودة عمرو بن العاص لما له من معرفة بالحرب وهيبة لدى العدو. فلبى عثمان طلبهم وأصدر أمره الى عمرو ؛ وكان قد أقام بمكة بعد عزله ؛ بالعـودة الى مصر وتولى قيادة الجيش . وهكذا فعل .

وكان جيش « مانويل » لا يزال بالاسكندرية وقد انضم اليه الروم الذين بقوا فيها . وعندما وصل عمرو الى مصر أشار عليه خارجة بن حذافة بمبادرة الروم القتال وهم لا يزالون فى المدينة فلا يتيح لهم

(١) انظر هذا الموضوع فى الفصل التالى

فرصة الخروج منها وانضمام أهل القرى والمدن اليهم مخافة أن تنتقض مصر كلها على العرب ويحتاج الى فتحها من جديد .ولكن عمرو فضل أن يدعهم يأتون اليه بحصن نابليون كى يطول الطريق عليهم ، ويبتعدوا عن مراكز تموينهم - كما نقول فى لغة اليوم ، أوعلى حد قول المقريزى « فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم بعضاً »
واستطرد المقريزى قائلا «فخرجوا (أى الروم)من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس » فدارت عند هذه المدينة معركة هزم فيها العرب الروم فولوا هاربين والعرب فى أعقابهم حتى وصلوا الى الاسكندرية ، وأغلقوا أبوابها وتحصنوا وراء أسوارها .

وعندما وصل عمرو على رأس جيشه الى الاسكندرية ورأى منعة أسوارها أدرك خطأه لأنه ترك هذه الأسوار قائمة عندما استولى عليها فى المرة الأولى وندم على ذلك وأقسم أنه لئن أظفره الله بها ليهدمن الاسوار حتى تتساوى والأرض وحتى تصبح المدينة « مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان » .

وتلمس عمرو أماكن الضعف فى أسوار المدينة فوجد أن الحصار أصلح ما يكون من الجانب الشرقى منها ، فأقام آلات الحصار وتمكن من تصديع الأسوار . وفى رواية أخرى أن الحصار نجح بفضل خيانة وقعت من الداخل : فقد قيل أنه كان على أبواب المدينة بواب اسمه ابن بسامة فسأل عمرو أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه فيفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك :

وسواء صدقت هذه الرواية أو تلك فان العرب دخلوا المدينة عنوة فامعنوا فى القتل والنهب حتى كادت تلقى جزاء المدن المقهورة . ولكنه عندما وصل الجيش الى أواسط المدينة أمر عمـــرو بالكف عن تلك الأعمال ، وأن يرفع الجنود أيديهم ، وأن يبنى مسجد فى المكان الذى أمر فيه برفع السيف فأسمى « مسجد الرحمة » وكان بين القتلى فى ذلك اليوم « مانويل » قائد الحملة ، ولاذ فلـــول الجيش بالسفن فاقلعت بهم .

وقد بر عمرو بقسمه فهدم الاسوار الشرقيـــة حتى سواها بالأرض .

وهكذا تم للعرب فتح الاسكندرية عنوة وأمنوا انتقاض أهلها مرة أخرى . .

وكان ذلك صيف سنة ٦٤٦ .

الباب الرابع

معركة ذات الصوارى

معركة ذات الصوارى

لم تقع هذه المعركة فى الاسكندرية ، ولكنها كانت على صلة وثيقة بالاسكندرية ، فهى نفحة من نفحات جهادها ، وثمرة من ثمرات نشاطها . ففيها بنى جانب من السفن التى اشتركت فى المعركة وعقدت الإجتماعات لتدبير أمرها ، وجرى الاستعداد لها . وإذا كان بعض المؤرخين الاجانب يقولون انها وقعت بالقرب من « فنيكس » أمام الشواطىء السورية ، فأن الرأى الارجح أنها جرت أمام ما يسميه بعض المؤرخين الاجانب بـ « فونكه » الواقعة غرب الاسكندرية وهى ما نسميه اليوم «فوكه» ، ولعل هذا ماحمل صاحب النجوم الزاهرة » على القول بأن « غزوة ذات الصوارى » جرت « فى البحر من ناحية الاسكندرية » .

* * *

لم يعرف العرب البحر فى الجاهلية كما عرفته غيرهم من الامم ، وهذا ما نستنتجه مما وصل الينا من أشعارهم التى تعتبر سجلا أمينا لمعارفهم وعاداتهم وطريقة معيشتهم . فبينما تفيض أشعارهم بوصف الناقة والمفاوز التى يقطعها الشاعر على ظهرها فاننا لا نكاد نجد ذكراً للبحر والسفن إلا فى معرض الفخر فى مثل قول عمر بن كلثوم حين فاخر بأن قومه يملأون ظهر البحر سفينا .

على أنهم بعد أن ظهر الاسلام وتعددت فتوحات العرب وتأسست دولتهم أحسوا بالحاجة الى أن يكون لهم أسطول . وكان أول من شعر بذلك

معاوية بن أبي سفيان عندما ولى الشام . ولا عجب فقد وجد أن ثغور الشام مفتوحة لغزوات الروم وهجماتهم ، وأنه لايحسن الدفاع عنها لأنهم كانوا يفاجئونها من البحر : فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى أن ينشىء أسطولا وأن يغزو قبرص لأنها كانت قاعدة لغزوات الروم ، وقد شاء أن يؤثر فيه فقال فى كثير من الغلو « ياأمير المؤمنين أن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » .

وكان عمر لا يعرف ما هو البحر وانما سمع بالحروب التى تجرى فيه فكتب الى عمرو بن العاص بمصر يسأله عن ذلك ويطلب منه أن يصف له البحر وراكبه فبعث عمرو إليه بكتاب قال فيه : « انى رأيت خلقا كبيراً يركبه خلق قليل . إن ركن فرق القلوب ، وأن تحرك ازاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة : هم فيه كدود على عود ، أن مال غرق وإن نجا برق » فكان وصفه هذا باعثاً لعمر على الاشفاق منه بالرغم مما عرف عنه من إقدام وشجاعة . فكتب إلى معاوية ينهاه عن ركوب البحر ويقول : « لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلما أبداً ، وقد بلغنى أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله تعالى كل يوم وليلة أن يفيض على الارض ويغرقها فكيف أحمل الجنود فى البحر الكافر المستعصى بالله . لمسلم واحد أحب الى مما حوت الروم . »

ولعل هذا أيضاً هو السبب فى أن عمراً أبى على عمرو بن العاص أن يتخذ من الاسكندرية مقراً له ، ورغب إليه فى أن يجعل الفسطاط

عاصمة مصر : وقد أبى عمر أن تكون العاصمة على ساحل البحر وأن يكون بينه وبين الجنود المسلمين النيل وترعه المتشابكة .

فاضطر معاوية الى تقوية الحاميات فى المدن الساحلية وانشاء الرباط فيها ، وكان يقصد بالرباط أصلا الحصون التى يتجمع فيهـا الجند للدفاع عن المناطق التى تتعرض لغارات أساطيل الروم . ثم توسع معناه حتى شمل جميع الحصون التى يقيم فيها الجنود .

وقد صدقت نظرية معـاوية فى ضرورة انشاء أسطول لاستطلاع ما يدبره الروم فى البحر إن لم يكن لمهاجمتهم فيه . فقـد جرى بعد مقتل عمر بن الخطـاب فى ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ أن فكر الروم فى استرداد الاسكندرية ومصر — على ما رويناه فى الفصل السابق — فانشأوا أسطولا كبيراً عدته ثلاثمائة سفينة فاجأ العرب ودخل ميناء الاسكندرية على حين غرة . ولم يكن فى المدينة سوى الف رجل للدفاع عنها، ولم يستطع العرب الاستعداد له لأنه لم تكن لديهم سفينة واحـدة تأتيهم بأنباء ما يدبر لهم فى البحر . وقد كان هذا حجة لمعاوية لدى الخليفة عثمان بن عفـان فأذن له بعدها ببناء أسطول وغزو قبرص ولكن على شرط أن يجعل الجهاد فى البحر اختيارياً .

وقد جاء فى كتاب بعث به عثمان لمعاوية : « انتخب الناس ولا تقع بينهم . خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله واعنه . . . » وقد كثر المتطوعون لهذا الغزو لان مدن الساحل كانت زاخرة بالتائقين الى ركوب البحر والطامعين فى الاقطاعات .

وقد وجد معاوية فى عبدالله بن أبى سرح الذى عينه عثمان على مصر بعد عمرو بن العاص مساعداً وعضداً كبيراً فى انشاء الأسطول :

وكان عبدالله عاملا على الفيوم — وفى رواية أنه كان على الصعيد — عندما جاءه كتاب الولاية على مصر فانتقل الى الفسطاط وأقام فيها : وجاء فى « النجوم الزاهرة » أنه كان أخ عثمان لامه : وأن عثمان « شفع له يوم الفتح حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر دمه »

وقد اختلف المؤرخون فى الحكم عليه . فقال النواوى أنه كان من أعقل قريش وأشرفهم : ولكن عمرو بن العاص نعى عليه ضعفه وقلة كفايته فى حكم البلاد وقيادة الجيوش . ووصفه الطبرى بأشنع الصفات فقال أنه لم يكن فى وكلاء عثمان اسوأ من عبدالله والى مصر : أما ابن تغرى بردى فقد قال عنه أنه « لما ولى مصر أحسن السيرة فى الرعية ، وكان جواداً كريما : » .

ومهما قيل فى سياسة عبد الله للحكم ، وفى معاملته للرعية واخفاقه فى الدفاع عن مصر عند هجوم الروم عليها حتى اضطر عمرو بن العاص الى القدوم اليها لردهم ، فانه يجب أن نحمد له أنه كان العضد الأكبر لمعاوية لانشاء أسطول عربى خصوصاً أن صناعة السفن كانت تتم بادىء ذى بدء فى مصر — فى الاسكندرية والقلزم — وكان الخشب يرسل من الشام . ثم أحس معاوية بالحاجة الى انشاء دور أخرى لصناعة السفن فى غير مصر فاسس أول دار فى عكا سنة ٦٦٩ .

وهكذا استطاع العرب بالاسطول الذى انشأوه الاستيلاء على جزيرة

قبرص (٦٤٩) وجزيرة ارواد (٦٥٩) والأغارة على جزيرة رودس وصقلية وأقريطش لتأديب الروم .

◎ ◎ ◎

أما أول مرة التقى فيهـا الأسطول العربي بالأسطول الرومى فكانت فى المعركة المعروفة باسم « ذات الصوارى » ، وقـد سميت كذلك لكثرة صوارى المراكب التى تجمعت فيها . والافرنج يسمونها بمعركة « فونيكة » لوقوعها بالقرب من المكان المعروف بهـذا الاسم — كما أشرنا من قبل — والواقع غرب الاسكندرية وهو ما نسميه اليوم بفوكه.

وقد استعد الفريقان ، وخاصة الروم ، لهذه المعركة :

كان امبراطورهم قسطنطين الثانى ينظر بعين القلق الى تزايد قوة العرب والغارات التى تقوم بها سفنهم ويخشى أن تفلت من أيدى الروم السيطرة على المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط التى كانت مجالا لسفن الروم تروح فيهـا وتغدو دون أى مزاحم حتى نشأ الاسطول العربى وأخذ يضايق تحركاتها ويزاحمها على هذه السيادة ويتفوق عليها . فابتدأ قسطنطين باصلاح داخليـة بلاده وقمع جميع الفتن ونشر الامن فيها ، ثم انشأ أسطولا قوامه الف سفينة سار به شطر الاسكندرية ، فى حين كان الأسطول العربى مؤلفاً من مائتى سفينةفقط بعد أن انضمت سفن الشام الى سفن مصر . وعقد لواؤه على عبدالله بن أبى السرح الوالى على مصر .

وهال العرب ما سمعوه عن كثرة عدد سفن الروم فجمع عبد الله

رجاله وشاورهم فى الأمر وقال : « بلغنى أن ابن هرقل قد أقبـل عليكم فى ألف مركب فأشيروا على » فلم يرد عليه أحد من العرب ثم أعاد الكرة ولكن أحدا لم يتكلم أيضاً أما فى المرة الثالثة فتمثل أحد رجاله بالاية الكريمة « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله » . وقد شجعت الاية عبدالله فأخذ عدته للقتال .

والتقى الاسطولان فى٢٩ أغسطس سنة ٦٥٤ فشرع العرب يطلقون على سفن الروم ذخيرتهم . وكان فى أعلى الصوارى صناديق مفتوحة من أعلاها تسمى توابيت يصعد اليها الرجال قبل ملاقاة العدو للكشف عنه أو لرميه بالحجارة أو بقوارير النفط لاشعال الحرائق ، أو بجرار النورة (وهو مسحوق ناعم يعمى الجنود بغباره لأنه مزيج من الكلس والزرنيخ)، وبقدور الحيات والعقارب الى غير ذلك. ولما رأوا نفاد ذخيرتهم ربطوا سفنهم بعضهـا ببعض حتى أصبحت ميـدانا صالحا للقتال بالسيوف . واجتذبوا اليهم سفن العدو بالخطاطيف وهكذا التحم الفريقان وتقابلا وكثر عـدد القتلى حتى « رجعت الدماء الى الساحل تضرب بها الأمواج وطرحت الأمواج الرجال ركاما » كما قال الطبرى .

وحاول الامبراطور الهجوم على السفينة التى تقـل عبدالله بن أبى سرح أمير البحر العربى ليوقع الاضطراب فى صفوف العرب فأمر جنوده بقذف خطاف علق بالسفينة وأخذوا يجذبونها . ولكن علقمة بن زيد العطيفى برز للسلاسل وأخذ يضربها بحد سيفه غير ملتفت الى السهام التى كانت تضرب اليـــه وتتناثر حوله حتى استطاع قطعهـــا وانقذ سفينة القيادة .

ودام القتال بين الفريقين حتى هزمت سفن الروم وأضطر الامبراطور أن يختفى فى زى ابن أحد ضاربى الطبول وفر على أحدى السفن الى صقلية حيث قتل :

۞ ۞ ۞

هذه هى « غزوة ذات الصوارى » ، وهى من المعارك الحاسمة التى قلبت الأوضاع وغيرت مجرى التاريخ، لأنها كانت السبب فى تقلص سيطرة أسطول الروم عن البحر المتوسط واحلال أسطول العرب محله. وبعدها استطاعت السفن العربية أن تسير من نصر الى نصر وأن تهاجم الروم فى عقر دارهم وأن تصل الى القسطنطينية .

ولا عجب بعد هــذا أن اتخذت بحريتنا العربية فى عهـد ثورتنا المباركة من التاسع والعشرين من شهر أغسطس يوما لهـا تحتفل فيه بما أوتيته من تقدم باهر وقوة ضاربة . وفى هـــذه الذكرى مفخرة بالماضى واعتزاز بالحاضر وحافز للمستقبل .

الباب الخامس

غزوة الربضيين

غزوة الربضيين

الربضيون هم سكان أحدى ضواحى قرطبة ، قاعدة بلاد الاندلس في حكم الامويين . كانت هذه المدينة عند فتح العرب لها في أكتوبر سنة ٧١١ قائمة على الشاطىء الايمن من نهر الوادى الكبير الذى يجرى الى جنوبها ، وكان على هـذا النهر جسر قديم متـداع يصل المدينة بالضفة الجنوبية للنهر فرممه هشام بن عبد الرحمن ، ثانى ملوك الاندلس فساعد ذلك على اتساع المدينة وقام على تلك الضفة ربض سكنه عامة الشعب وصغار التجـار من المولدين والنصارى . وقد ساعد على ازدحامه بالاهلين قربه من دار الامارة ومن المسجد الكبير ، وهما عند رأس الجسر من الشاطىء الآخر للنهر يفصل بينهما طريق واسع يسمى « المحجة العظمى » فانتقـل الى ذلك الربض كثير من الذين تضطرهم أعمالهم الى الاختـلاف الى دار الامارة ، أو تستدعيهم دروسهم الى مجاورة المسجد الكبير واشتهر بين سكانه جماعة من تلاميذ الأمام مالك بن أنس . وجماعة من رجال الفقه ، وغيرهم من ذوى النفوذ.

ولم يلبث الربض أن ضم بين أهليـه أئمة الشرع ورجال الدين وأصحاب النفوذ وذوى الحاجات وفريقا كبيراً من عامة الشعب ، فصار

مركزاً هاماً للثقافة والسياسة ، وركنا من أركان المعارضة فى عهد الحكم بن هشام ، ثالث ملوك بنى أمية بالاندلس ، بل لعل المعارضة نبتت فيه ونمت واتسعت فروعها حتى شملت قرطبة نفسها . وكانت عنيفة ليس فيها كياسة ولا لباقة :

ولم تكن السياسة التى جرى عليها الحكم فى ادارة شئون الدولة مما يبعث على الرضى والارتياح ، اذ كان — على ما وصفه المؤرخون — طاغية مسرفاً فى البطش ، وكانت وسائله فى الحكم منذ تسلم مقاليده تثير النفوس وتبعث فيها روح النقمة والثورة ، فقــد استبد بالشئون المالية فأثقل كاهل الشعب بالضرائب ، وولى على جبايتهــا جماعة من النصارى ، وحشد حوله الجند من المرتزقة والغرباء ، وقربهم اليه ، وأقامهم على حراسته ، فأثار بهذا جميعه سخط الخاصة والعامة .

وقد نشبت فى عهده سلسلة من الثورات فى حواضر البلاد كقرطبة وسرقسطة وطليطلة ، فكان يقمعها بعنف شديد ، ويهمنا منهـا الثورة التى قامت فى الربض الجنوبى من قرطبة والتى اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخها :

ففى اليوم الثالث عشر من شهر رمضان من سنة ١٩٨ هـ (مايو سنة ٨١٤ م) أو من سنة ٢٠٢ (مارس سنة ٨١٨) كانت أسواق ذلك الربض تعج بمن يختلفون اليها ، وكان التجار والصناع يتحدثون

فى المغارم الجديدة التى فرضها عليهم الحكم، ويذكرون حانقين أنه وكل بجباياتها الربيع ، رئيس حرس القصر، وكان هؤلاء الحرس من الصقالبة المسيحيين . ويسميهم المؤرخون « الصبيان الصقالبة » . وكان الربيع نفسه من غير المسلمين .

فى ذلك اليوم مر بالسوق أحـــد جند القصر من الحرس الصقلبى ووقف بدكان صيقلى طالبـا الى صاحب الدكان أن يصقل له سيفه . فتثاقل الرجل دون تلبية رغبة الجندى حتى عيل صبره . فاستل حسامه وأغمـده فى صدر الصيقلى فاخترقه فمات لساعته . ومضى الجندى فى سبيله فاضطربت السوق واستفزت الجناية الفظيعة من فيها . وتناقل الناس الخبر فعم الاضطراب الربض كله .

وكان الحكم قد خرج فى ذلك اليوم للصيد فى جنوب العاصمة وكان الربض الطريق الذى يسلكه فى عودته الى القصر. فلم يكد الاهلون يتبينون ركبه حتى تظاهروا فى صخب ينم عن الهزء والسخرية، فقبض حرس الملك الذين كانوا يحفون بالركب على عشرة من المتظاهرين وصلبوهم فى الحـــال ، فكان ذلك سببا فى اندلاع ثورة جامحة . وأقفلت أسواق الربض وتجمهر الصناع والتجار وانضمت العامة اليهم ، وتسلح القوم بما وصلت اليه أيديهم من مـــــدى وحراب وفؤوس . وانحدروا الى الجسر يحاولون اقتحامه للوصول الى قصر الملك المعروف بقصر الرصافة ، وكادوا يقتحمونه لولا أن قام قائدان ماهران همـــا

عبيد الله بن عبدالله البلنسى واسحق بن المنذر بجمع الجند من الفرسان الذين عثرا عليهم بقرطبة وقاما بحركة التفاف وهاجما المتظاهرين من من المؤخرة فوقع الذعر فى قلوبهم حين رأوا أنفسهم بين نارين ، واختلت صفوفهم ، ولم يلبثوا أن تبددت جموعهم ولاذوا بالفرار .

وهكذا نجا الحكم من غضب الامة. ثم انتقم من الربض شر انتقام ، فاباحه لجنده واطلق أيديهم فيه فقامت مجزرة كبيرة وجرى نهب ذريع وقتل الناس فى الشرارع وفى مفارق الطرق وفى البيوت مدة ثلاثة أيام . ثم أمر باعدام ثلاثمائة سرى من سراة الربض وصلبهم ، وباجلاء جميع سكانه عن قرطبة ، وهدم الربض بحيث لا يبقى فيه حجر على حجر ، وأمر كذلك بأن يحرث الربض وأن يزرع .

وابتدأت هجرة سكان الربض عقب صدور أمر الحكم ، أى فى أواخر شهر رمضان . فقصدت غالب الاسر التى أجليت عن الربض — وكان عددها فى نظر بعض المؤرخين العرب عشرين الف أسرة — الى طليطلة التى عرفت بمعارضتها للحكم ومناهضتها لحكومة قرطبة ولكن سكانها كانوا لا يزالون يذكرون كيف بطش الحكم بهم فى « وقعة الحفرة » ، وقتل فى يوم واحد خمسة الآف من رجالها . فخافوا أن يتعرضوا من جديد لغضب الحكم وبطشه ، وطلبوا من الربضيين الجلاء عن المدينة .

وقطع الربضيون رجالا ونساء وأطفالا بلاد الاندلس حتى انتهوا

الى الساحل فاجتاز بعضهم البحر الى ارض العدوة، كما يسمون مراكش وطوحت الاقدار بالبعض الاخر الى أبعد من شواطىء أفريقيا الغربية وقذف بهم مصيرهم الى الشاطىء الشرقى ، وانتهى مطافهم فى البحر الابيض المتوسط الى الاسكندرية .

كان عدد الربضيين الذين انتهوا الى الاسكندرية يربو على العشرة آلاف فلم يأذن لهم الحاكم بالنزول . وقد ذكر بعض المؤرخين أنهم أقاموا فى مراكبهم ، وقال المقريزى أنهم نزلوا بالرمل . وكان التجار يذهبون اليهم بسلعهم فيبيعونها لهم . ولعلهم لم يكونوا ليخرجوا الى المدينة ويستولوا عليها لولا اضطراب الامر ايامئذ بمصر ، بل فى العالم الاسلامى بالشرق أثر النزاع الذى نشب بين الأمين والمأمون .

وقد وصل الربضيون الى الاسكندرية فى وقت كانت الفوضى ضاربة أطنابها بمصر، فافلت زمام الامر من أيدى الولاة ، وكثر الثائرون عليهم . وتعددت الاحزاب ، واختلف الزعماء ، واشتدت الدعايات، واضطرب حبل الامن فى المدن والقرى ، وتعرض المسافرون للنهب والسلب ، وإنصرف أصحاب الأمر والنهى الى تأييد نفوذهم . وأما الاسكندرية فقد صارت عرضة لهجمات العرب من قبيلتى لخم وجزام، وكانتا فى حرب دائمة ، لا تتصالحان الا لتفرضا الضرائب على الشعب الحائر فى ذلك الموقف الشاذ .

أقام الربضيون اذن حيناً من الزمن فى مراكبهم ، يذهب اليهم التجار فيبيعونهم سلعهم وما يتقوتون به . ولعلهم كانوا ينزلون الى الرمل ليستبضعوا ثم يعودون الى مراكبهم .

ويجب أن نذكر أن « الرمل » الذى قيل أنهم نزلوا فيه لم يكن المكان المعروف بهذا الاسم اليوم . ولعله كان بين الميناءين الكبير والصغير ، أو فى نهاية الميناء الكبير بالقرب من المنارة .

وجرى فى أحد الايام أن قصابا تشاجر مع أحد الربضيين ممن نزل الى الرمل ليبتاع قوته فضرب الجزار وجه الربضى بكرش . فأثارت هذه الفعلة الجماعة . وقرر الربضيون الثأر لصاحبهم بالاستيلاء على المدينة ، وأخذوا يتحينون الفرصة الملائمة لتنفيذ مأربهم ، ولم تلبث أن سنحت هذه الفرصة .

كان المطلب بن عبد الله الخزاعى والى مصر عن المأمون قد عين محمد بن هبيرة حاكما على الاسكندرية ، فلم يذهب اليها ، واستخلف عليها عمر بن عبد الملك الذى يقال له عمر بن ملاك . ولعل هذا الاخير لم يحسن حكم المدينة ولم يستطع مغالبة القبائل الضاربة فى أطرافها . وكانت تشن عليها الغارة تلو الغارة للنهب . وتلقى الذعر فى قلوب الاهلين : فعزله المطلب وعين أخاه الفضل حاكما على المدينة ، فكتب عبد العزيز بن وزير وكان ثائراً على المطلب مستأثراً

بمدينة تنيس وما حولها من مدن الساحل ، أنه كتب الى عمر بن ملاك يستفزه على حاكم الاسكندرية الجديد ، ويسأله أن ينتقض على المطلب وأن يدعو له بالاسكندرية .

ولعل الاسكندريين كانوا يتوقون الى حياة مستقرة ليعنوا بتجارة مدينتهم ويعملوا على تدعيم ازدهارها ونشاطها . أو أنهم ضنوا بها أن تصبح مسرحا للفوضى فتغاضوا عن دعوة عمر بن ملاك واستكانوا لحكم الفضل . فولى عمر وجهه شطر الربضيين ودعاهم الى الانضمام اليه ومعاونته على اخراج الفضل من الاسكندرية .

وكان الربضيون قد ملوا حياة المراكب ، وتاقت نفوسهم الى سكنى المدينة . ورأوا كذلك أن الفرصة التى كانوا ينتظرونها للوثوب على المدينة والأخذ بثأر صاحبهم قد جاءتهم ، فلبوا دعوة عمر بن ملاك ، وهاجموا المدينة ، ولكن الاسكندريين حاربوهم وأجلوهم عنها وأرغموهم على العودة الى مراكبهم . وهكذا استقر الحكم للفضل بالاسكندرية .

ولكن حكم المطلب بالفسطاط كان مضطربا ، فلم يلبث أن عزل أخاه الفضل عن الاسكندرية بعد ثلاثة أشهر من ولايته على الثغر ، وولى عليه اسحق بن ابرهة فى شهر رمضان سنة ١٩٩ ثم عزله وولى أبا ذكر المعافرى ،

وفى غضون هذا قامت حرب بين المطلب وبين السرى ، وكان هذا الأخير وضيع الأصل ، جاء مصر فى عهد الرشيد ، ولكنه عرف كيف ينتهز الفرص حين قامت الحرب بين الأمين والمأمون . فتقدم الصفوف بمصر ودعا للمأمون فيها طمعا فى أن يوليه عليها . ولما ولى المأمون المطلب على مصر اعتصم السرى بالصعيد وتولاه لنفسه . ثم زحف على الفسطاط واستولى عليه واسر المطلب ، وأصبح بذلك حاكم مصر .

ولعل هذه الحوادث جرأت عمر بن ملاك على الاستئثار بالاسكندرية بعد أن تظاهر بالدعوة فيها لعبد العزيز بن وزير الذى كان على تنيس فلم يكد السرى يتغلب على المطلب حتى وثب عمر بن ملاك على أبى ذكر المعافرى ، حاكم الاسكندرية ، فاخرجه منها . واستعان على ذلك بالربضيين الذين بادروا لمعاونته متظاهرين بتعضيده مسرين أملهم بالفوز بالمدينة لأنفسهم .

وعندما استقروا بالاسكندرية عاثوا بها فسادا وارتكبوا من الموبقات ما جعل عمر يأمرهم بالعودة الى مراكبهم . وعندئذ كشف الربضيون القناع عن مقاصدهم واظهروا حقيقة نواياهم الا أنهم أبوا الخضوع لامر الحاكم ؛ واعتصموا بالمدينة وشرعوا يعملون على الاستيلاء عليها . وقد أسعفهم الحظ لبلوغ أربهم .

كانت بالاسكندرية عناصر قوية تستطيع أن ترجح كفة من تؤازره فقد كانت فيها جماعة اللخميين . وكانت لخم أقوى القبائل العربية التى نزلت بالاسكندرية وأعزها جانباً . وكانت فيها طائفة الصوفية . ولعلها المرة الأولى التى تذكر فيها الصوفية فى تاريخ الاسلام. وكانت الصوفية بالاسكندرية « تأمر بالمعروف وتعارض السلطان فى حكمه » كما يقول المقريزى . وكان يتزعم هذه الطائفة رجل يدعى أبا عبد الرحمن

الصوفى ، وقيل أن هذا الصوفى خوصم الى عمر بن ملاك فى امرأة فحكم عليه . فاحفظه ذلك على عمر ، وسعى الى الربضيين ، وألف بينهم وبين اللخميين ، فتكونت قـــوات متحالفة شديدة البـــاس تناهض حاكم الاسكندرية .

واستولى الربضيون واللخميون على المدينة ، وحاصروا الحاكم فى قصره . ولمـــا رأى عمر وفرة عدد محاصريه خشى أن لا يمنعه قصره دونهم ، وأن لا يحميـــه دون وصولهم اليـــه . وخاف على أولاده ونسائه بطش الثائرين وقسوتهم . فاغتسل وتحنط واستعد للموت ، وأمر أن يدلى من أسوار القصر فلم يكد يصل اليهم حتى أخذته سيوفهم وقتلته . وتتابع الحـــكام على الاسكندرية حتى ذكر المقريزى أسماء خمسة منهم تولوها فى شهرين اثنـــين ، وكان الربضيون يفتكون بهم الواحد تلو الآخر .

ولكن الخلاف دب فى صفوف المتحالفين ، ولعل سببه تعيين حاكم على الاسكندرية . وكل فريق يحاول تنصيب حاكم من أشياعه فتخاصموا ، وكانت الغلبة للربضيين فانهزمت لخم ، واستقـــل الاندلسيون بحكم الاسكندرية ، وولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ؛ فاساء الحـكم وانتشر الفساد ، وسادت الفوضى ، وكثر النهب والقتـل ، واستفحل الأمر حتى ضاق الربضيون ذرعاً بالحاكم للذى عينوه فعزلوه ، وعينوا رجلا منهم يعرف بالكنانى ، ولعله — وهو من أهل الاندلس — كان

يخشى منهم على المدينة وساكنيها ؛ لأنه كان يقول أن خراب الاسكندرية قد يأتى من الاربعين مركبا الراسية فى ثغرها وممن فيها ؛ وان هؤلاء مسلمون وليسوا بمسلمين . فقد كان حكم الربضيين للاسكندرية شراً وفساداً ، فلم يكد يستتب لهم الامر حتى اندفعوا لقتال العرب فيها ، فتغلبوا على اللخميين كما ذكرناه ، ثم ناوأوا بنى مدلج وانتصروا عليهم وأجلوهم عن المدينة . وثار الاسكندريون غير مرة على هـــذا الفساد فأخمد الربضيون الفتنة فى مقتلة عامة لم تبق ولم تذر ، وذهب ضحيتها خلق كثير . ولم يفرقوا فى ازهاق النفـــوس بين المسلمين والنصارى واليهود ، وأحرقوا أحياء من المدينة بأكملها ؛ واضطر بطريرك الاقباط مرقس الثانى الى الهرب من المدينة ، والتجأ الى شرق الدلتا حيث كان الاقباط كثيرى العدد ، واتصل بعبد العزيز بن الوزير الجروى الذى كان مستقلا بحكم تلك المنطقة وشكا اليه حالة الاسكندرية وفساد الحكم فيها وقيل أن البطريرك قضى نحبه متأثراً بما شاهده فيها . ولعل عبد العزيز شاء أن يرضى الاقبـاط المنتشرين بمنطقته ، أو أنه شاء أن يثأر لعمر بن ملاك عامله على الاسكندرية فسار اليها فى شهر أغسطس سنة ٨١٦ على رأس خمسين الف مقاتل :

❁ ❁ ❁

يتصل تاريخ الربضيين بالاسكندرية بحديث النضال الطويل الذى قام بين السرى وعبد العزيز وبين أبنائهما من بعدهما . وقد أخذوا لهم شريعة

أن يؤازروا المنتصر وينضموا إليه، وأفلحوا فى هذه السياسة واستطاعوا بواسطتها الاحتفاظ بسيادتهم على المدينة .

سار عبد العزيز اذن الى الاسكندرية وأقام الحصار عليها ،فاتصل الربضيون بالسرى وأظهروا خضوعهم له ، وأعادوا بنى مـــدلج الى الاسكندرية ، بعد أن أجلوهم عنها امتثالا لامره ، وطلبوا مساعدته للدفاع عن المدينة ورد محاصريها . ولعل السرى خاف أن يستفحل أمر عبد العزيز ويشتد اذا استولى على الاسكندرية فجند جيشاً عظيما وارسله الى تنيس ليستولى عليهـــا ، فلم تكد تصل الى عبد العزيز أنباء حملة السرى حتى رفع الحصار عن الاسكندرية وأسرع عائداً الى تنيس ليدافع عن قاعدة حكمه .

وطالت الحروب بين السرى وعبد العزيز ، ويقال أن هذا الأخير كان يكتنز ذهباً كثيراً ، وأنه دفنه فى بعض الحفر ثم قتل الفعلة الذين استعملهم فى ذلك حتى صار لا يعرف أحد غيره موضعه . وكان ينفق من هذا الذهب المركوز فى شراء الأعوان وحشد الانصار ، وبواسطته استمال اليه الربضيين بالاسكندرية فانقلبوا على السرى ، وناصروه ، ولكنهم لم يلبثوا أن تغيروا على عبد العزيز حين أرسل المأمون الى السرى خلعة الولاية على مصر فى شهر شعبان سنة ٢٠١ هـ (مارس سنة ٨١٧م .) فأعاد عبد العزيز الكرة على الاسكندرية .

وقد ذكر المقريزى أن عبـد العزيز حاصر الاسكندرية بعد ذلك أربع مرات ، وأنه فى المرة الرابعة أقام عليها الحصار ونصب المجانيق سبعة أشهر ، أى من أول شعبان سنة ٢٠٤ الى سلخ صفر سنة ٢٠٥ وأنه فى اخر صفر هـذا ، أى فى ١٤ من أغسطس سنة ٨٢٠ م . أصيب عبد العزيز بفلقة من حجر مجانيقه ثمات ، وقضى كذلك غريمه السرى نحبه بعده بثلاثة أشهر .

واستتبعت الحرب سيرها بين ابنى السرى أبى النصر محمد وعبد الله وبين على بن عبد العزيز ، واستفحل أمرها بالرغم من تداخل أصحاب الرأى فيما بينهم ، حتى أرسل المـأمون الى مصر عبدالله بن طاهر ؛ وكان من خيرة قواده . فتغلب على ابنى السرى ، وانضوى على بن عبد العزيز تحت لوائه وعاهـده على الطاعة . وهكذ استتب الأمر لعبد الله بمصر ، ولم يبق أمامه غير استرداد الاسكندرية من أيدى الربضيين .

⁂

بينما كانت تلك الأحـداث تجرى بمصر كان الربضيون يستقرون بالاسكندرية وينشئون فيها حكما ، اذا كنا نجهل اليوم نظامه فاننا نعرف أنهم كانوا يختارون للولاية عليهم رجالا ممن يتبينون فيهم الشجاعة والاقدام وحسن الرأى . ولعل هذا الاختيار هو الذى حمل بعض المؤرخين على

اطلاق اسم الجمهورية على شكل نظام الحكم الذى أقاموه .

ورأى عبدالله بن طاهر أن أمارته على مصر لاتستكمل شروطها اذا لم يستول على الاسكندرية ويطرد الربضيين منهـــا ، بعد أن استقلوا بها وفصلوها عن جسم الولاية المصرية . فسار إليهم بجيش من أهل خراسان فى مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ . (مايو سنة ٨٢٧ م .) فأقام عليـــها الحصار عشرة أيام . فخرج إليه الربضيون يعلنون استسلامهم .

فقبل مصالحتهم على أن يغادروا المدينة الى حيث يشاءون على شرط أن لا ينزلوا فى بـــلد خاضع للدولة العباسية . واشترط عليهم أيضاً أن لا يستصحبوا احدا من اهل مصر فى مراكبهم، وان لا يأخذوا عبيدهم ، فرضوا بشروطه .

وقبيل مغادرتهم الاسكندرية أرســـل عبد الله بن طاهر من فتش مراكبهم فوجد فيهـا جمعاً من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم معهم فأمر باحراق المراكب. ولكن الربضيين استسمحوه واعدين باحترام شروطه السابقة إذا قبل ردها اليهم ، ففعل .

وهكذا رحل الربضيون عن الاسكندرية واستعادت مصر وحدتها تحت أمرة عبدالله بن طاهر واليها عن المأمون .

۞ ۞ ۞

هذه قصة غزوة الربضيين للاسكندرية . واذا كان لابد لكل قصة من خاتمة فقد كانت خاتمة هذه القصة، أن انتقل الربضيون من الاسكندرية الى جزيرة أقريطش (كريت) ، وكانت تابعة للامبراطورية الرومانية فنزلوا فيها واحتلوا أكثر أجزائها وأحرقوا مراكبهم ايذانا بأنهم لن يبرحوها .

وقد أقام الربضيون باقريطش ١٣٥ سنة . فنشروا فيها الاسلام ، وأسسوا المدن ، وانشؤوا قاعدة لحكمهم مدينة الخندق وهى التى صارت تدعى بعد ذلك « قنديه » واشتهروا بغاراتهم على جزر بحر ايجه وعلى شواطىء بلاد اليونان حتى كادوا يعطلون تجارتها .وقد صارت الجزيرة فى عهدهم مباءة لاعمال اللصوصية والقرصنة، كما ازدهرت فيها النخاسة حتى صارت سوقها فيها أعظم أسواق الشرق وصارت تمون الشرق كله بالرقيق .

فلا عجب إذا ضاقت حكومة بيزنطية ذرعا بالربضيين . وخاطب أحد أباطرة الروم عبد الرحمن الثالث — أول خلفاء بنى أمية بالاندلس — فى أمرهم فأجابه عبد الرحمن أنهم ليسوا من رعاياه فلا يملك أمرهم ولا يستطيع ردهم .

وأخيراً نشط نيقوفور فوقاس الذى عرف بحروبه مع سيف الدولة، وكانت العرب تسميه الفقاس ، فأنشأ أسطولا عظيما ، وهاجم

به الجزيرة ، وكان عليها حاكم اسمه العزيز ، وهو اخر أمرائها ، فاستولى فوقاس على الجزيرة ، وتغلب على الربضيين ، وأسر العزيز ونقله الى القسطنطينية حيث اقام الى وفاته ونشأ ابنه « النحاس » فيها وخدم الامبراطورية وفنى فيها .

أما مسلمو الجزيرة فقد رحل عنها من رحـل واعتنق النصرانية من اعتنق .

وهكذا انطوت صفحة من صفحات التاريخ كان فيها إثم وشر ، وكان فيها فروسية وبطولة .

البَابُ السَّادِسُ

الصليبيون يحاصرون الاسكندرية



صلاح الدين الأيوبي

الصليبيون يحاصرون الاسكندرية

بينما كانت الدولة الفاطمية تشرف على نهايتها فى مصر نشب صراع عنيف بين شاور وضرغام على تولى الوزارة خصوصاً بعد أن أصاب الخلافة والملك فيهـــا الضعف والوهن الى حد أن خرج أمر تولى الوزارة من يدى الخليفة وصار يتـــولاها الذى يظفر بخصمه . وكان شاور يتولاها ولكن ضرغام تغلب عليه فهرب من وجهه ولجأ الى نور الدين صاحب دمشق الذى وجه معه جيشاً لينصره على غريمه وولى نور الدين على الجيش أسد الدين شيركوه بن شـــادى الذى اصطحب ابن أخيه صلاح الدين . فسار هذا الجيش مع شاور الى مصر وتغلب على جنود ضرغام وأعاد شاور الى دست الوزراء (مايو سنة ١١٦٤ م.)

وكان شاور قد وعد نور الدين بأن يدفع بعد توليه الوزارة جميع نفقات الجيش الذى سار معه من دمشق ، وأن يتنازل عن جزء من الاراضى المصرية . فلما طالبه شيركوه بوفاء الوعد امتنع شاور فاحتل شيركوه بلبيس ووضع يده على مديرية الشرقية حتى يفى شاور بوعده . فطلب شاور مساعدة الافرنج فى فلسطين ليطرد جيش شيركوه من مصر . فأسرع الملك عامورى (امورى) الى تلبية نداء شاور أمـــلا بتدعيم الملك الناشىء فى الشرق باسم الصليبين ، بعـــد بسط الحماية على مصر .

ولكن عاموري بعد أن وصل الى مصر واشترك في القتال ضد شيركوه جاءته الانباء عن غزو قوات نور الدين في دمشق لمملكته — وهي خطة نفذها أسد الدين لحمل عاموري على الارتداد عن مصر ، وقد فعل بعد أن أتفق مع شيركوه على أن يغادر الجيشان — جيش نور الدين وجيش الافرنج — مصر . وهذا ماجرى .

ولكن مصر في عهـــــد الفاطمين المشرف على الزوال كانت تطمع شيركوه فيها . فعاد بجيشه سنة ١١٦٧ ،فاستغاث شاوربالافرنج فهبوا لنجدته وجرت مواقع بين الفريقين اضطرت شيركوه الى جعل النيل فاصلا بينه وبين جيش المصريين .

ثم انحدر شيركوه الى الدلتا واستولى على الاسكندرية . وكان الاسكندريون يعارضون سياسة شاور التي ترمى الى الاستعانة بالافرنج ضد شيركوه وسماحه لهم بالتدخل في شـــئون مصر الداخلية وتوليه الوزارة في حماية مقاتليهم . فناصروا شيركوه .

وأحس عاموري بخطورة الموقف فجمع مجلسا عسكريا ضم القواد من الافرنج والمصريين وتقررضرب الحصار على الاسكندرية من ناحية النيل بواسطة سفينة كبيرة تقف عند مخرج الخليج من فرع رشيد ، ومن ناحية البر بجنود عاموري الذين يعسكرون بين دمنهور وتاروجه ، ومن جهة البحر بواسطة اسطول بيزا .

وهكذا انقطع عن الاسكندرية كل مورد ، فشاء شيركوه حمل

الافرنج على فك الحصار من ناحية البر فقام بمحاولة جريئة ، وهى أنه ولى ابن شقيقه صلاح الدين على المدينة وترك له الف جـــندى للدفاع عنها ثم خرج من الاسكندرية من ناحية مريوط ومعه بقية الجيش واخترق الصحراء ، وظل ملتزما الشاطئ الغربى من النيل وهاجم المدن والقرى حتى وصل الى قوص وأقام الحصار عليها . وقد فعل ذلك أملا بأن يفك الافرنج الحصار عن الاسكندرية للحاق به ، وأملا بالفوز بما يمون به الثغر .

ولكن الافرنج وجنود شاور ظلوا يشددون الحصار على الاسكندرية ووصلت نجدات الى الصليبيين الذين أخذوا يضعون آلات للهجوم كما بنوا برجا عالياً ليراقبوا منه ما يجرى فى المدينة . ولبناء هذا البرج قطعوا جميع الأشجار التى كانت فى الحدائق المنتشرة حول الاسكندرية مما أغاظ أثرياءها وتجارها . فقد خربت حدائقهم وأصبحت مدينتهم عرضة للهجوم والضرب والدمار .

وشعر صلاح الدين بأن سكان الاسكندرية ، على مناصرتهم له ، أخذوا يملون هذه الحالة فأرسل الى عمه فى الصعيد يستدعيه . ثم جمع سراة المدينة وخطب فيهم بطريقته القوية التى عرف بها فيما بعد ، وأقنعهم بأن يصمدوا حتى يعود عمه شيركوه .

وقد عاد شيركوه فى الحال ، وأرسل أحد الاسرى من نبـلاء الافرنج يعرض على الملك عامورى فض الموقف بأن تنسحب القوات الصليبية وقوات شيركوه من مصر وأن يتم تبادل الاسرى .

فقبل عاموری العرض ، خصوصا أنه صار يخشى على مملكته في فلسطين وسوريا من أن تصاب بالضعف بعد طول غيابه عنها .

وهكذا تم الصلح وفتحت الاسكندرية أبوابها لفرسان الافرنج الذين طافوا فيها كزائرين وشاهدوا معالمها وآثارها .

وقد دخل شاور الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١١٦٧ ، وشاء أن ينتقم من أعيانها الذين ناصروا شيركوه . ولكن صلاح الدين لفت نظر الملك عاموری الى ذلك فأرسل الى شاور بأن يمتنع ، وذكره بشروط الصلح ، فامتنع شاور .

الباب السابع

حصار آخر

حصار آخر

تمر الايام سريعة بعد ذلك الحصار الأول . فيقتل شاور ويتولى شيركوه الوزارة ثم لا يلبث أن يموت فيتولاها صلاح الدين . ويموت الخليفة العاضد فى ١٣ سبتمبر ١١٧١ فتزول بموته خلافة الفاطميين فى مصر ويتولى صلاح الدين الملك ويؤسس الدولة الايوبية .

على أن فلول الدولة البائدة لم يقبلوا هذا الوضع ولم يرضوا عن زوال ملكهم دون أن يقوموا بمحاولة لاستعادته . وقد دبروا فعلا فى شهر ابريل سنة ١١٧٤ مؤامرة حبكوا أطرافها فى القاهرة واشترك فيها كثير من القواد المصريين والسودانيين ، ثم اتصلوا بالملك عامورى فى القدس ، وبملك صقلية جيوم الثانى . وكان من مصلحة الافرنج فى سوريا أن لا تنضم مصر الى دمشق ، وأن تظل الشيعة تحكم مصر كما كانت فى عهد الفاطميين . فأرسل عامورى الى القاهرة رسولا بمهمة رسمية لدى صلاح الدين ومهمة سرية لدى الثوار . ولكن صلاح الدين علم بهذه المهمة السرية من أحد جواسيسه فى سوريا فانتدب نصرانياً من رجاله الذين يثق بهم لمرافقة رسول الملك عامورى . وقد افضى الرسول الى مرافقه بمهمته وأخبار المؤامرة فقبض صلاح الدين على المتآمرين وهكذا فشلت المؤامرة .

وكان الاتفاق قد تم بين المتآمرين وجيوم الثانى ملك صقلية ، وكان صاحب أكبر أسطول فى البحر الابيض المتوسط على أن يرسل هذا

الاسطول لمحاصرة الاسكندرية . ولم يبلغ ملك صقلية خبر اكتشاف المؤامرة والايقاع باصحابها فقام بتجهيز أسطوله وارساله الى الاسكندرية فوصلها فى ٢٨ يوليه سنة ١١٧٤، وفى رواية فى ٧سبتمبر من السنة نفسها .

وقد وصف محمد بن قاسم النويرى فى كتابه المخطوط « الالمام عما جرت به الاحكام للقضية فى واقعة الاسكندرية » هذه الواقعة فقال أن طلائع الاسطول الصقلى وصلت الى الاسكندرية ظهر يوم الأحد السادس عشر من ذى الحجة سنة ٥٦٩ ه. ثم لم يزل متواصلا متكاملا حتى العصر. وكان ذلك فى حين غفلة من الموكلين بالنظر . ولكن أمره كان معروفا اذ علم بمغادرته صقلية ، وأن لم يكن يعلم أنه يقصد الاسكندرية .

وكان الاسطول يتألف من نحو ثلاثمائة سفينة تحمل خمسين الف مقاتل :

وقد استطاع الصقليون أن ينزلوا يوم الاثنين الى شاطىء الاسكندرية بخيلهم ومعداتهم للحصار ، وان يتجمعوا خارج أسوارها فى معسكر كان ينتظم ثلاثمائة خيمة ثم نصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سوداء استصحبوها من صقلية .

وكان صلاح الدين معسكراً بمدينة فاقوس فارسلت اليه أخبار الحملة على جناح الحمام الزاجل ، فأرسل الى الاسكندرية مدداً من جنده وكانت هذه الامداد تصل يوماً بعد يوم من البحيرة وبرقة .

ودار القتال فى يومى الاثنين والثلاثاء بين الصقليين وبين الجنود

المعسكرين بالاسكندرية . وتقدم الصقليون من أسوار المدينة وأخــذوا يضربونها . ولكن الجنود المدافعين عن الاسكندرية والمؤلفين من الاتراك والاكراد والكنانيين يظاهرهم أهل الثغر على عادتهم فى الدفاع عن مدينتهم فتحوا الأبواب فجأة وخرجوا لملاقاة العــدو ونشبت معركة استبسل فيها الاسكندريون ولم يكد يأزف عصر يوم الاربعاء حتى كانوا قد أمعنو بالصقليين قتلا وضربا وردوهم عن مدينتهم ولم ينج منهم الامن نزع ملبسه ورمى بنفسه فى البحر ليلحق بالسفن . ولكن جنود الاسكندرية البواسل لحقوا بهم فى الماء وأحرقوا العديد من سفنهم وغنموا خيامهم وخيولهم ومعداتهم .

وغادرت البقية الباقية من الاسطول الكبير مياه الاسكندرية صباح يوم الخميس عائدة الى صقلية بالذل والانكسار .

الباب الثامن

غزوة القبارصة

غزوة القبارصة

اذا كانت قوات الصليبيين قد غادرت سوريا سنة ١٣٠٣ فانها لم تخرج من الشرق لأن الملك « جى دى لوزينيان » كان قد استولى على قبرص فى مايو سنة ١١٩٢ وأسس فيها مملكة توارثها أبناء هذه الأسرة من بعده حتى سنة ١٤٨٩ حين تنازلت الملكة « كاترين »، وكانت من أصل بندقى عن الجزيرة الى جمهورية البندقية .

وكانت سفن هذه الدولة تشن الغارات على السواحل المصرية والسورية ، وأشهر هذه الأحـداث إغارة القبارصة على الاسكندرية فى ٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ م

ولدينا مصدران هامان اعتمدهما جميع من كتبوا تاريخ هذه الغزوة أحدهما عربى مخطوط يسمى « الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية » لمحمد بن قاسم النويرى السكندرى . وكان أديباً وشاعراً على طراز أدباء عصره ، وقد شهـد الغزوة ودون أخبارها وفصل حوادثها ، والثانى كتاب باللغة الفرنسية وعنوانه « الاستيلاء على الاسكندرية أو سيرة الملك بيير الاول دى لوزينيان »، وهو ملحمة شعرية نظمها « جيوم دى ماشار » وروى فيها ما سمعه من الفرسان الذين عادوا الى فرنسا بعد ذلك اشتراكهم فى الحملة ، وخاصة « جان دى رنس »

الذى شهد الواقعة وأقام بعدها فى قبرص وصحب الوفد الذى انتدبه ملك قبرص لاجراء مفاوضات الصلح بالقاهرة . وطبع هذا الكتاب فى جنيف سنة ١٨٧٧ . وسنحاول فيما يلى أن نوفق بين النصين والروايتين .

وأما الأسباب التى دعت « بير لوزنيان » ملك قبرص الى القيام بهذه الغزواة فقد لخصها النويرى فيما يلى :

السبب الأول — منع السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك الناصر قلاوون سلطان الديار الشامية سنة ١٣٥٣ النصارى من العمل فى دواوين الحكومة إلا اذا اعتنقوا الاسلام . وأما الذين بقوا على نصرانيتهم فيلبسون الثياب الخشنة ويتصرون اكمام أثوابهم وأذيالها ويصغرون عمائمهم ويركبون الحمير على شق واحد . . . فامتثل جميع النصارى لذلك .

الثانى — قيل أنه لما ولى الملك بطرس عرش قبرص بعد موت أبيه أرسل الى الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجه الى مدينة صور ليجلس على عمودها كعادة كل من تملك جزيرة قبرص ليصبح له نفاذ حكمه فى رعيته . ولكن السلطان احتقره ومنعه من الدخول الى صور .

الثالث — وصلت سنة ١٣٦٣ الى الأسكندرية سفينة للافرنج وأخذت

تعبث فى الثغر فخطفت ما قدرت عليه بين الميناءين الشرقى والغربى ، ثم اشتبكت مع سفينة تركية قادمة الى الأسكندرية وعليها بعض التجـار المسلمين حتى أضطر الرماة المسلمون الى الخروج فى قوارب وابعدوا السفينة الى خليج السلسلة حيث أرست بالقـرب من الباب الأخضر . فاتصل الأمير سيف بلاط نائب السلطان بالأسكندرية بقناصل الافرنج المقيمين بها للوقوف على أمر هذه السفينة فاتصل القناصل بها وعرفوا أن من فيها يريدون مؤونة من الأكل والشرب ثم يرتحلون بسفينتهم فارسل اليهم الحاكم ما طلبوه ، فغادرت السفينة ميـناء الاسكندرية ولكنها شاهدت أمام أبى قير سفينة قادمة من الشـام فوثب رجالها عليها واستولوا على مافيها من البضائع والقوا برجالها فى خليج أبى قير ومضوا بها .

الرابع ــ هجم غراب (سفينة) على الجزيرة المقابلة لرشيد وأسر رجاله خمسة وعشرين من سكانها وحدثت معركة بين رجـال السفينة وأهالى الجزيرة انتهت بفرار المعتدين .

الخامس ـــ وصلت فى ١١ يونيو سنة ١٣٦٣ الى أبى قير ثـلاث سفن وهاجم رجالها المدينة وأسروا ٢٥ نفراً من سكانها ما بين رجال ونساء وصبيان وأخذوا غنائم كثيرة ومضوا بهم الى مدينة صيدا حيث افتداهم المسلمون وأعادوهم إلى أبى قير .

السادس — كثرت اعتداءات القراصنة على ثغر أبي قير واشتباكهم مع الأهالى :

السابع - قتل العوام بالاسكندرية بعض من بها من البنادقة :

أما « ما شار »فيقول أن بيير دى لوزينيان أحس منذ حداثة سنه

برغبة فى استعادة دولة القدس وأن والده طالما نهاه عن ذلك فلم يرعو، وأنه بعد أن ولى الملك سافر الى اوربا وطاف فى أنحائها ولقى وعوداً لم يف أصحابها بها . وأخيراً استطاع أن يقنع جمهورية البندقية بأن تمده ببعض سفنها ثم ابحر فى ١٢ من يونيـــو سنة ١٣٦٥ . قاصداً الى الشرق :

وكان للملك مستشار اسمه « برسفال » من مدينة « كولونيا » وكان قد مكث طويلا بالأسكندرية عندما أسر فيها . فوصفها له بأنها مدينة آهلة بعدد كبير من الناس حـــتى ليجتمع بميادينها فى بعض الأحيان مائة الف رجل . ولكن هؤلاء الناس لا يعرفــون أساليب الحرب ويهربون إذا اشتد القتال ، وهم يعيشون حياة رغدة تاركين الأمور الى الأقدار تقضى فى مصيرهم بما تشاء ، ويوجد بالقرب من المدينة ميناء يسمونه الميناء القديم يفصله عن المدينة ميدان فسيح جميل : وهذا الميناء ضرورى للمدينة ومن السهل مهاجمتها من هذه الجهة فتؤخذ وتحرق .

وقد أخذ الملك برأى مستشاره وأمر السفن بالسير الى الاسكندرية .

وكانت السماء صافية الاديم والبحر هادئا عندما أشرف الأسطول على الأسكندرية عصر يوم الخميس ٢١ من محـــرم سنة ٧٦٧ هـ . (٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ م .)

كان على الاسكندرية فى ذات العهد الامير صلاح الدين خليل بن عوام ولكنه كان يؤدى فريضة الحج ، وكان ينوب عنه على المدينة نائبه الامير جنغره ولم يكن على شيء من الدراية فى شئون الحرب .

وفى صباح يوم الجمعة خرج الاسكندريون الى خارج الأسوار وهو المكان الذى يواجه الجزيرة التى تقوم عليها المنارة (فاروس) والتى تفصل بين الميناءين الشرقى والغربى . وانضم اليهم العـــربان من كل صوب يحملون أسلحتهم ، وهى تتألف عادة من السيوف والرماح والنبال . وسرت روح الحماس بين تلك الجماهير الحاشدة خارج السور . وخرج نائب الحاكم لملاقاة العدو على رأس تلك الجموع فنصحه بعض المغاربة بأن يعود الى المدينة ويأمر الجماهير بالعودة الى داخـــل الأسوار ويتحصنوا وراءها — وكان للاسكندرية ثلاثة أسوار أحدها داخلى يحيط بالمدينة والثانى خارجى يواجه ماحولها ومن يأتى اليها والثالث وسط بينهما — لأنهم لن يستطيعوا مقابلة العدو على هذه الحالة . فأبى نائب الحاكم الأخذ

بهذه النصيحـــة لأنه ظن أن بأمكانه الحيلولة دون نزول الافرنج إلى الساحـــل .

وتقدمت سفينة كبيرة نحو البر فتصدت لها جماعة من المغـــاربة وخاضوا فى الماء الضحل وناوشوا من فيها وامسكوها بأيديهم وطلبوا من الزراقين النار ليحرقوها ولكن الاضطراب كان يسود تلك الجموع غير المنظمة بحيث لم يلب أحد هـــذا الطلب فاستعجلوا النار فرموا اليهم بمدفع فيه نار هزيل فوقع فى الماء وانطفأ . فالتحم المغاربة بجنود العدو وتضاربوا بالسيوف فتغلب القبرصيون عليهم ودخلت سفن الافرنج الميناءوأخذوا ينزلون الى البر فى نظام رائع كان يعوز المدافعين عن الأسكندرية ، وكانوا يلبسون الخوذ والدروع فى حين كانوا المدافعون « لحما على وضم » كما يقول النويرى . وهكذا نجد أن الفريقين لم يكونا متكافئين فلا عجب اذا تغلب الافرنج على الاسكندريين فتفرقوا بعد أن قتل منهم من قتل ، وبعد أن تكدست جثثهم فى الجـــزيرة وخارج أبواب المدينة ، وبعد أن كتبوا فى دفاعهم عن مدينتهم صفحة من صفحات البطولة الفردية الخالدة دوه النويرى بعض منها ، مثل دفاع جماعة من الجند عن رباطهم بالجزيرة خارج باب البحر ، فقد رموا العدو بالنبال حتى نفدت فاخذوا يقلعون حجارة النوافذ ويقذفونه بها حتى نفدت أيضاً . وعندئذ اقتحم القبارصة عليهم الرباط وذبحوهم ،

وقال النويرى أن دماءهم جرت من ميازيت الرباط « كجرى الأمطار حين أبانها منها » .

وأسرع من بقى من المدافعين عن المدينة ومعهم نائب الحاكم الى دخولها من باب الخوخة الواقع فى الطرف الآخر من المدينة ..

وأخذ القبارصة يعالجون أبواب المدينة حتى وجدوا منفذا من باب الديوان — ويسميه « ماشو » باب الأفاويه — فاخترقـوه ودخلوا المدينة . فجرى هرج فيهـا وتولى الذعر الأهلين فتركوا منازلهم وتجارتهم وهربوا من أبواب سدرة والزهرة ورشيد . فمن خرج من الباب نجا ومن لم يخرج أدركه الافرنج وقتلوه .

ولم يكد يتم استيلاء العدو على المدينة حتى بادر بيير لوزينيان الى تنظيم شئونها فوضع حرسا من جنوده على الأبواب وقصد الى تدمـير قنطرتين على الخليج ليحول دون وصـول المدد من القاهرة ولـكن الجموع الغفيرة التى كانت قد خرجت من الأسكندرية هاجمته وحالت دون ذلك .

وعقد الملك فى اليوم التالى مجلساً مع ضباطه فأشار عليه الجميع بوجوب الجلاء عن الاسكندرية لأنه ليس لديه العدد الكافى من الجنود للدفاع عنها عندما يصلها المدد من القاهرة ؛ وهو وشيك الوصول .

ولما شاع ذلك بين الجنود ضعفت هممهم وغارت عزائمهم ؛ وعاد الكثير منهم الى مراكبهم عصر ذلك اليوم — السبت — ولكن بعد أن أمعنو فى المدينة نهباً وسلباً وتدميرا ، وبعد أن نقلوا جميع ماااستطاعوا نقله من خيراتها الى سفنهم . وهكذا لم ينج من أعمال التخريب فنادق تجار الافرنج أنفسهم من البنادقة والكتلانيين والجنويين ، كما حملوا الى سفنهم كل مارأوه من غال وثمين ، وقد قيل أنهم أخذوا باب المنارة ؛ وكان تحفة فنية بارعة .

وكما أمعن الافرنج فى النهب والسلب أمعنوا كذلك فى القتـــل والاسر . وقد بلغ عدد الأسرى الذين نقلوهم الى سفنهم خمسة آلاف من سكان الاسكندرية بين مسلمين ويهود ومسيحيين شرقيين ، ووزعوا أكثرهم على ملوك الدول المسيحية ، ولم يرجع منهم إلا القليل ممن افتدوا بعد المفاوضات التى طال أمرها بين مصر وقبرص .

وظل الافرنج فى سفنهم الراسية بميناء الاسكندرية حتى يوم الثلاثاء ١٤ من اكتوبر سنة ١٣٦٥ . وكانوا قد تيقنوا أنهم لن يستطيعوا تحقيق حلمهم بالاحتفاظ بالمدينة . ورأوا من بعيد طلائع الجيش المصرى تصل الى مشارف المدينة لنجدتها فاصدر « بيير لوزينيان » الأمر بالرحيل ففك البحارة الحبال ونشروا الأشرعة وأبحروا قاصدين قبرص .

كانت هذه الحملة فاتحة عهد الانحطاط الذى طرأ على الإسكندرية

وران عليها حيناً من الزمن ؛ وكان كذلك ايذاناً بتدهور مملكة « لوزينيان » بقبرص ؛ فقد أخذت دولة المماليك بمصر توالى الغارات على الجزيرة وفرضت عليها الجزية ؛ وظلت تتقاضاها منها حتى بعد زوال ملك آل « لوزينيان » عنها وانتقاله الى البندقية ، حتى الفتح العثمانى .



السيد محمد كريم
حاكم الاسكندرية
حين وصول الحملة الفرنسية
استشهد فى ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

الباب التاسع

نزول القوات الفرنسية
فى الاسكندرية

نزول القوات الفرنسية
فى الاسكندرية

كانت الاسكندرية الشرفة التى يطل منهـا الشرق على الغرب ، والباب الذى يلج منه الغرب الى الشرق. وقد صدق هذا القول الأخير فى الحملات التى وجهت الى مصر خلال القـرن التاسع عشر . وكانت أولها حملة نابليون على مصر .

ان مركز مصر الجغرافى ووقوعها فى ملتقى طرق ثلاث قارات هو الذى اطمع الغزاة فيها . وكان نابليون يقصد من حملته على مصر القضاء على الامبراطورية البريطانية وقطع طريق الهند عليها. فجهز فى أواخر القرن الثامن عشر حملة كبيرة قوامها ٣٢٠٠٠ جندى يحملها أسطول يتألف من ٢٦٠ سفينة . وقد أقلعت هذه السفن يوم ٩ من مايو سنة ١٧٩٨ من ميناء طولون قاصدة الى الشرق .

لم يكد يصل نبأ الأسطول الفرنسى ماخـراً عباب البحر الأبيض المتوسط الى جهة غير معلومة الى مسامع الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى حتى أخذ يجوب بأسطوله هذا البحر لكى يعلم وجهة سيره ويفسد عليه خططه ، ولكنه لم يلتق به . ولعله فطن الى أنه يقصد الاسكندرية فتوجه إليها وأرسل بعضاً من رجاله اجتمعوا بالسيد محمد كريم ، حاكم المدينة ، وباعيانها وحدثوهم عن الحملة الفرنسية وقالوا أنها قد تقصد الى الاسكندرية . ولما كان استعداد المدينة لا يكفى لردها فقد تطوع الاسطول البريطانى للقيام بهذا العمـل دون أى مقابل سوى

مده بالماء والزاد وأعرب رجاله عن استعدادهم لدفع ثمن ذلك. ولكن أعيان المدينة وحاكمها أبوا عليهم ذلك واضطر الاسطول البريطانى الى الرحيل عن الاسكندرية الى أسيا الصغرى حيث يجد ما يحتاج إليه .

وبعد ثلاثة أيام من رحيل الاسطول البريطانى ، أى فى اليوم الاول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ وصلت العمارة البحرية الفرنسية الى ميـــاه الاسكندرية عند مطلع الفجر . ولما وضح النهار أرسل نابوليون يطلب القنصل الفرنسى فرقض محمد كريم ثم عاد فأذن. واطلع القنصل نابوليون على حالة المدينة .

وكان الضعف قد أصاب الاسكندرية الى أبعد حد وأصبحت مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة الاف نسمة تقريبا ، وكانت منازلها متجمعة فى منطقة الانفوشى أى بين الميناءين، الشرقى والغربى، ولم تكن محصنة ، وليس فيها جيش للدفاع عنها ، وكان فى مينائها ثلاث سفن حربية بقيادة القبودان (أمير البحر) أدريس بك . وعندما فاجأ نابوليون الاسكندرية باسطوله طلب من أدريس بك أن يرفع العلم الفرنسى على سفنه بدلا من العلم العثمانى فابى ذلك وطلب الاقلاع من الميناء فصرح له نابوليون بذلك ورحل القبودان بسفنه الثلاث الى اسطنبول ليروى للباب العالى ما شاهده .

ولما عـــلم نابليون من القنصل بزيارة نلسون واسطوله للاسكندرية واقلاعه منها منذ ثلاثة أيام داخله الوجل وأمر فى الحـــال أن تتحول السفن الى العجمى وأن تبدأ النزول الى البر . وقد تم ذلك كله ليلا فلم تكد تأزف الساعة الثانية من صباح يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ حتى

كان الفرنسيون وقد وضعوا أقدامهم على البر فى تلك المنطقة وبدأوا الزحف الى الاسكندرية .

وجاء بعض البدو الضاربين فى تلك الناحية الى الاسكندرية لينقلوا الخبر الى السيد محمد كريم ، حاكم المدينة، فهب فى الحال الى المقاومة وكان منذ ظهور السفن الفرنسية ، قد أخذ فى ترميم الحصون والقلاع وجهزها بما استطاع العثور عليه من ذخيرة وعتاد . واندفع السكندريون للدفاع عن مدينتهم فتفرقوا فى الطوابى والحصون واستنجد الحاكم بفرسان البدو فى الصحراء الغربية والبحيرة لمناوشة العدو وصد هجومه .

وسار السيد محمد كريم على رأس ما عنده من القوات من الانكشاريه وانضم إليهم فرسان من قبيلة الهنـــادى ، وتصدت هذه القوة لطلائع الجيش الفرنسى فهاجمتها وتغلبت عليها وقتلت ضابطها ثم أخذ فرسان قبيلة الهنادى يناوشون المقدمة ويقطعون حبل مواصلاتها مع بقية الجيش ويقرر المؤرخون الفرنسيون أنه لو كان عـــدد هؤلاء الفرسان يقارب الخمسمائة فارس لا لحقوا ضرراً كبيراً بالجيش الفرنسى وربمـــا تغير مجرى التاريخ .

وعندما اقترب نابليون من المدينة صعـــد الى أعلى عمود السوارى الساعة الثامنة صباحاً ليلقى نظرة شاملة على موقعها واعداد الحملة عليها.

واستبسل الاسكندريون فى الدفاع عن مدينتهم بما لديهم من أسلحة وعتاد بدائية وأخذوا يطلقون الرصاص من بنادقهم القديمة ، وكاد نابليون نفسه يذهب ضحية الرصاص الذى كان يتطاير من حوله

ولكن محمد كريم رأى أن هذا الاستبسال جهد ضائع وهدر للدماء أمام قوات كبيرة كاملة العدة والعدد . فأمر بالكف عن القتال عند الظهر وامتنع هو ومن حوله من القـــوات فى قلعة فرعون ، يدبر خطة المقاومة .

فاستدعاه نابوليون إليه ، واستقبله فى مجلس من الوجوه والاعيان واظهر اعجابه ببسالته . وأعاد اليه سلاحه .

ولا بدمن الاشارة الىأن هذا البطل السكندرى الكبير لم يستكن الى مظاهر التقدير هذه ، وظل يثير القلاقل فى وجه الفرنسيين حتى أمر نابوليون باعدامه فراح شهيد الوطنية والاخلاص لبلاده .

۞ ۞ ۞

ولكن الاسكندرية استطاعت أن تنتقم من الفرنسيين ، وهى تشاهد جيشهم الذى جاءها قوى الشكيمة وفير الاقدام ، ضعيفاً متخاذلا مقطع الاوصال بفضل الضربات العديدة التى كالها له الشعب المصرى ، والثورات العديدة التى قام بها ، والوقائع التى خسرها مع القوات العثمانية والبريطانية التى جاءت مصر لطرد الفرنسيين منها — وبعض هذه المعارك جرت عند مشارف الاسكندرية - وقد شهـــدت الاسكندرية ذلك الجيش وقوامه عشرة الاف جندى بقيادة الجنرال عبد الله مينو محاصراً فيها لا يبدى حراكا بعد أن قطع الانجليز الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط ثم قطعوا المياه عن المدينة نفسها فلم يبق لديها سوى مياه الصهاريج .

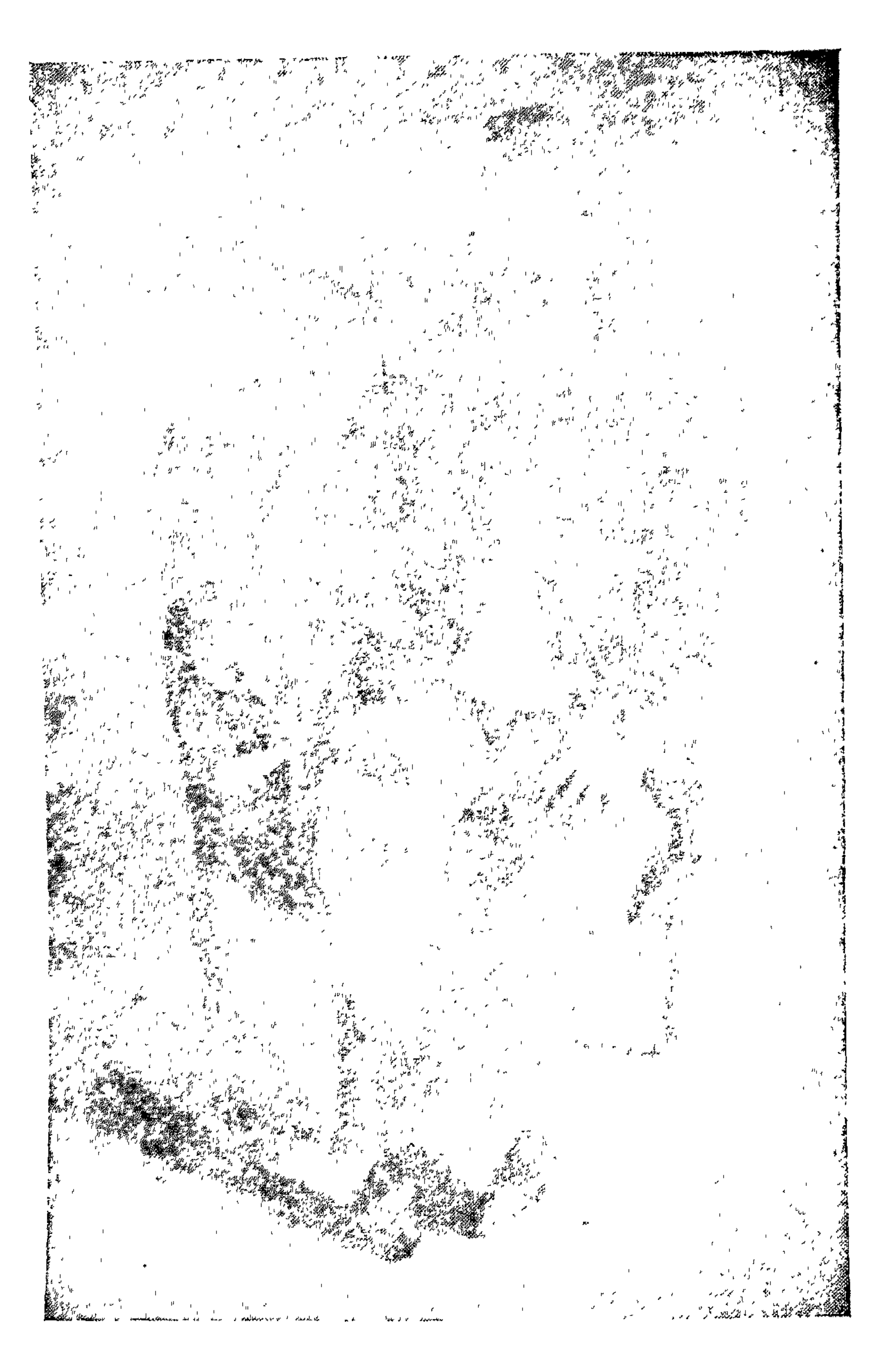
وأخير اضطر « مينو » الى المفاوضة ، وعقـد فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٠١ معاهدة لانسحاب البقية الباقية من الجيش الفرنسى عن مصر . ولم يكد ينتهى ذلك الشهر حتى كانت مصر قـد تطهرت من أولئك الأعداء الغازين ، وكانت الاسكندرية تذكر جهادها عندما قاومت هذا الجيش وهو فى عنفوان قوته وتحمد الله على أن نداء دماء أبنائها البررة التى سفكت يومئذ قد استجيب ، وأن جهادهم قد أثمر ، وأن أرض الوطن قد أنقذت من براثن الاستعمار

الباب العاشر

معركة الاسكندرية



أحمد عرابى بطل ثورة ١٨٨٢



طلبه عصمت قومندان منطقة الاسكندرية

معركة الاسكندرية

١١ يوليو سنة ١٨٨٢

« حرب غادرة غير عادلة ولا متعادلة »

كان العـــدوان البريطانى الغادر على مصر آخر محاولة قامت بها بريطانيا فى القرن التاسع عشر لتنفيذ خططها الاستعمارية وبلوغ أهدافها التوسعية وبسط نفوذها على مصر وتامين طريق قناة السويس وكانت هذه أغراضها حين اشتركت مع الدولة العثمانية فى طرد الفرنسيين من مصر (١٨٠١) ، وحين بعثت حملة « فريزر » (١٨٠٧) لتأييد محمد الألفى ضد محمد على . وقد اضطرت فى هاتين المرتين الى الانسحاب من مصر تحت ضغط الشعب المصرى من ناحية ، وقد لقنها فى الحملة الثانية — وخاصة برشيد — درساً بليغاً ، وكذلك لانها رأت أن الظروف الدولية غير ملائمة للقيام بعمل واسع النطاق . ثم أخذت تخلق الاسباب مرة تلو المرة لبلوغ تلك الاهداف التى لم تكن تخفى على أحد ، وهذا القيصر نقولا الأول امبرطور روسيا يصرح للمسيو « بارنت » سفير فرنسا ببطرسبرج فى فبراير سنة ١٨٣٩ ، أى عندما تأزم موقف مصر واضطر محمد على الى الانسحاب الى داخل الحـــدود المصرية ، بأن الانجليز يصوبون انظارهم الى مصر ، وأن تلك البـــلاد ضرورية لهم

لتأمين مواصلاتهم مع الهند وأنهم يرغبون فى استعمارها بشتى الوسائل ، بعد أن وطدوا أقدامهم فى البحر الاحمر والخليج الفارسى .

وكانت الدول الأوربية قد تعودت التدخل فى شئون مصر لتدعيم نفوذها فيها والفوز بأقصى ما يمكنها أن تفوز به من مغانم وامتيازات ، ولعبت « الاحتكارات المالية الدولية » كما قال السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى « الميثاق » ، دوراً خطيراً فى مصر و « استنزفت فيها كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الاجنبية ولمصلحة عدد من المغامرين الاجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على ، وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت بها حركة اليقظة المصرية ، تلك اليقظة التى تمثلت أيامئذ بثورة عرابى . وكانت هذه الثورة « قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة » كما كان « الاحتلال البريطانى العسكرى لمصر سنة ١٨٨٢ ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الاجنبية وتأييدا لمصلحة الخديو ضد الشعب ... »

وهـذا البيان الذى جاء فى « الميثاق » التاريخى العظيم الذى ألقاه السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى « مؤتمر القوى الشعبية » مساء يوم الاثنين ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ يغنى عن تفصيل الحوادث التى أدت الى تلك الانتفاضة الشعبية العارمة — ثورة عرابى — والاحداث الجسام التى تلتها والتى تذرعت بها بريطانيا للاحتلال ، مثل تخاذل الخديو توفيق

أمام مطالب بريطانيا ، وانحيازه اليهـا ، وضعف البعثة التى أرسلها الباب العالى الى مصر لمعالجة الموقف، وكثرة تبديل الوزارات المصرية، وضعف وزارة اسماعيل راغب دون مواجهـة العاصفة ، ووصول الاسطولين البريطانى والفرنسى الى الاسكندرية ، والمؤامرات والمناورات التى دبرها الجواسيس والعملاء البريطانيون ، وفى طليعتها مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونيو سنه ١٨٨٢ .

وهكذا نجد الموقف يتأزم يوماً بعد يوم ، والمنـاورات البريطانية سائرة فى طريقها . فيزعم اميرال الاسطول البريطانى الراسى بالاسكندرية مع الاسطول الفرنسى أن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى بوارجه ويطلب من حكومته إرسال مزيد من السفن الحربية فتلبى طلبه ثم تسعى لعقـد مؤتمر دولى فى اسطنبول لمعالجة شئون مصر فيجتمع هذا المؤتمر الذى أبى الباب العالى الاشتراك فيه ، بالسفارة الايطالية يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٢ ويقرر أن لا تسعى أية دولة الى خلق مركز خاص لهـا فى مصر وأن تمتنع عن أى تدخل مسلح أو غـير مسلح بمفردها ولكن بريطانيا طلبت أن يضاف الى القرار عبارة « الا فى حالة قهرية » ثم راحت تخلق هذه الحالة القهرية لتبرر تدخلها الذى اعتزمته منذ عهد بعيد، بل أنه قبل أن يبت المؤتمر بشأن الحالة القهرية كانت بريطانيـا قد خلقت أسبابها .

وتتلخص هذه الأسباب فى أن عرابى معتزم سد بوغاز الاسكندرية

لحصر البوارج الانجليزية التى كانت راسية فى الميناء ، وأن استعدادات حربية تجرى فى طوابى الاسكندرية حيث يركب المصريون بطاريات جديدة ويقومون بترميمات لتقوية الطوابى .

وبديهى أنه لا صحة لهذه المزاعم وأنها أسباب اختلقها الأميرال « سير بوشان سيمور » قائد الأسطول البريطانى ، أو أوحت اليه حكومته بها لتبدير ذلك الهجوم الغاشم الذى قامت به على مصر وتلك « الحرب الجائرة غير العادلة ولا المتعادلة » كما وصف خليل مطران حرب البوير .

وعندما أحكم وضع الخطة كتب سيمور الى طلبه عصمت ، قومندان موقع الاسكندرية ، بلاغا يطلب فيه منه الكف عن أعمال التحصين الجارية فى الطوابى .

وقد أجابه طلبه فى اليوم ذاته نافياً أنه زيد مدفع واحد على ما فى تلك الحصون .

والحق أن طوابى الاسكندرية كانت لا تزال على الحالة التى تركها عليها « جاليس » حين تولى اعدادها لمواجهة الهجوم الذى كان يخشى أن تقوم به بعض الدول الأوربية على مصر حين تأزمت الحالة بينها وبين محمد على سنة ١٨٣٨ وما بعدها . ولم يجر فيها من أعمال الترميم

سوى ما قام به الخديو اسماعيل حين جلب لبعضها مدافع ضخمة من طراز أرمسترونج بلغ مجموعها ٤٩ مدفعاً .

فلم يقتنع الاميرال سيمور بجواب طلبه عصمت وأرسل فى ٦ يوليو انذاراً آخر يقول أنه جرى بالامس تركيب مدفعين جديدين أو اكثر فى خطوط الدفاع القائمة على البحر ، فرد عليه طلبه فى اليوم نفسه بالنفى ، وتظاهر بعدم الاقتناع وطلب فى ٩ من يوليو بأن تسلم إليه الحصون ثم أرسل انذاره النهائى فى ١٠ يوليو وفيه يكرر طلب تسليم الطوابى الموجودة فى شبه جزيرة رأس التين ، وهى طوابى صالح وقايتباى والسلسلة قبل فجر الغد ١١ يوليو لتجريدها من السلاح والا ضرب الحصون بقذائف الأسطول .

وعلى أثر تلقى هذا الانذار النهائى عقدت الحكومة المصرية أكثر من اجتماع للتشاور وأوفدت أحد الوزراء مع طلبه عصمت الى الاميرال « سيمور » واستعانت بقناصل الدول فلم يفد هذا جميعه . وانتقل الخديو توفيق عملا باشارة نائب القنصل البريطانى الى سراى الرمل فى المحطة المعروفة بهذا الاسم ، وهو اليوم أحد حصون الدولة ، فى أصيل يوم ١٠ يوليو ، وباتت الاسكندرية تنتظر المصير الذى اعده لها العدوان الظالم والطمع الغاشم .

وقد غادرت السفن التجارية ميناء الاسكندرية عند ارسال الانذار

البريطانى ، وقيدت السفن المصرية مثل « المحروسة » و « محمد على » الى الترسانة .

وأما الاسطول الفرنسى الذى كان مرابطاً فى الميناء فقد غادرها ليلا ولم يترك سوى مدفعيتين « بيسون » و« ليروندبل » بعد أن عين لهما مكانا منعزلا لا تصل إليه المدافع البريطانية

وكانت انجلترا قد طلبت من فرنسا أن تشترك معها فى ضرب الاسكندرية فأبت وأغمضت عينها عن الاعتداء البريطانى لانها كانت ترقب صداقتها ومساعدتها لها ضد المانيا ، غريمتها أيامئذ .

وكانت مدينة الاسكندرية قد خلت تقريباً من سكانها ولم يبق فيها غير بعض الوطنيين والاوربيين من الذين لم يصدقوا أن بريطانيا ستقدم على ضرب المدينة ، أو من الذين حالت أعمالهم ومناصبهم دون ذلك أما الباقون من السكان فقد هربوا أما الى الداخل أو ركبوا السفن مهاجرين .

❁ ❁ ❁

كان عدد طوابى الاسكندرية وقتئذ خمس عشرة طابية ، وهى بالترتيب ابتداء من الجنرب كالآتى :

١ — طابية العجمى الكائنة بجزيرة العجمى ويسميها الافرنج

« مارابوت » وهو تحريف لكلمة « المرابط » وتسمى كذلك طابية العجمى البحرية تمييزاً لها ؛

٢ — طابية العجمة القبلية ، وتعرف بالطابية العيانة لانها ليست ذات أهمية حربية ؛

٣ — طابية المكس

٤ — طابية القمرية

٥ — طابية أم قبية

٦ — طابية صالح

٧ — طابية باب العرب

٨ — طابية الفنار

٩ — طابية رأس التين

١٠ — طابية الأطى، وهى كلمة تركية تنطق أضه، ومعناها الجزيرة والعامة تسميها طابية القضا

١١ — طابية الهلالية

١٢ — طابية قايتباى

١٣ — طابية السلسلة

١٤ — طابية كوم الدكة

١٥ — طابية كوم الناضورة :

والطابيتان الاخيرتان تقعان داخـــل المدينة ولم يقصدهمـــا الانذار البريطانى ولم يتعمد الاسطول ضربها .

وكانت مدفعية السواحل مكونة من ١٧٦٢ مقاتلا تعززها كتيبتان من الفرسان ، وحامية الاسكندرية مكونة من أربعة لواءات مشـــاة مجموعها ١٢ الف جندى و٧٠٠ من جنود المدفعية .

وفى اليوم السابق لنشوب القتال تولى أحمد عرابى القيادة العامة للدفاع عن الاسكندرية ؛ واتخذ مقر قيادته فى ديوان البحرية (الترسانة) يعاونه المهندس محمود فهمى وزير الاشغال وطلبه عصمت قائد حامية الاسكندرية ومحمد كامل وكيل وزارة الشئون البحرية .

وعندما بدأت المعركة قصد عرابى الى طابية كوم الناضوره ليشرف عليها ويتابعها منها .

❁ ❁ ❁

كان الاسطول البريطانى يتألف من :

ثمـــانى مدرعات كبيرة هى « الكسندرا » و « انفلكسيبل » و « سلطان » و « سوبرب » و « تميرير » و« انفنسيبل» و «موناركـ» و « بنيلوب » .

وخمس مدفعيات

وسفينة طوربيد واحدة

وسفينة كشافة واحدة

وكانت راية الاميرال معقودة على البارجة « انفنسيبل » ، وكان يخته « هيلكون » ينقل أوامره الى البوارج الاخرى .

۞ ۞ ۞

فى الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ كانت سفن الاسطول البريطانى قد أخذت مواقفها للقتال . فتقدمت البوارج « الكسندرا » و « سلطـــان » و » سوبيرب » و « وانفلكسيل » نحو طابية رأس التين حتى بلغت مسافة ١٨٠٠ متر تقريبا منها وأخذت تقذفها بالقنابل ، ثم تحولت نحو طابية قايتباى وصوبت نيران مدافعها اليها . وتقدمت بعد ذلك البارجة « تميرير » لتأييد البوارج الاربع فى هجومها ، فى حين قامت بوارج أخرى بمهاجمة طابية المكس .

وهكذا أخذت السفن الحربية تقذف قنابلها على شواطىء الاسكندرية وعند الطلقة الخامسة ردت قلاع الشاطىء على الأسطول وعندئذ تلفحت البوارج البريطانية بالدخان ، ولم يعد يسمع سوى « نباح تلك الكلاب الفولاذية التى كانت تعوى فوق صفحات الماء » .

وكان من شهود الموقعة « سكوتيدس » الملحق بالمفوضية اليونانية وقد روى مشاهداته فى كتابه « مصر الحديثة وعرابى » فاستهل الحديث عن المعركة بالثناء على شجاعة رجال المدفعية المصرية والعطف عليهم لأنهم لم يكونوا يملكون الدفاع عن أنفسهم كما يجب ، فلم يكن لاكثر الحصون متاريس وحواجز واقية وكانت المدافع مقامة فى العراء وعرضة للمهاجمين .

وذكر أن البوارج البريطانية كانت تطلق نيرانها على الحصون والطوابى فترد عليها حصون الاسكندرية ولكن قذائفها كانت تقع فى البحر فتتصاعد المياه فى الجو « فى شكل نوفرة عجيبة » .

الى أن قال : وبعد مضى ساعة من الزمن أخذت أصوات طلقات المدافع تخف وتبددت غيوم الدخان المتلبدة فى الأفق . فشاهدنا البوارج البريطانية تبرق تحت أشعة الشمس وحصون الشواطىء أخذت بالانهيار فكان منظرا مؤلما ومثيرا . هذه « انفلكسيبل » التى تعد من أعظم البوارج البريطانية قد غاصت الى نصفها فى الماء بين بارجتين أخريين ، وكأنها غول ماء يطلق النار على حصن رأس التين . وكان من المؤلم المصدع أن نسمع فى كل دقيقتين قصف المدافع الضخمة كأنها الصواعق تنقض على شواطىء الاسكندرية وخصوصاً عندما كانت البوارج الثلاث تقذف فى وقت واحد مدافعها على حصن رأس التين .

وعند الساعة الثامنة انفجر مستودع ذخائر « مرسى القنـــاة » التى كانت فى مدفعية المكس فأحدث دوياً عظيما .

وعند الساعة التاسعة اشتدت المعركة بين طابيـــة قايتباى والبوارج الثلاث التى هاجمتها .وقد قاوم المصريون ببسالة تفوق حد الوصف .وكانوا يقذفون قنابل مدافعهم بدقة وإحكام . وقد أصابت احدى القنابل التى كانت تطلقها مدافع الحصن البارجة « الكسندرا » فأطارت غرفة الربان وقتلت ضابطاً وعشرة من البحارة .

وعند الساعة الحادية عشرة أصيب مستودع البـــارود في حصن قايتباى فكف عن المقاومة .

وأخذا اطلاق المدافع يقل ساعة بعد ساعة حتى توقف تماماً عنـد الساعة السادسة مساء

وقد كتب الاسكندريون رجالا ونساء في ذلك اليوم صفحات خالدة من البطولة في الدفاع عن مدينتهم : فقد وقفوا وراء جنود المدفعية في الطوابى معرضين أنفسهم للقنابل التى كانت تتساقط حولهم ليساعدوا أولئك الجنود على نقل الذخيرة ويعملوا على تزويدهم بما يحتاجون اليه من ماء ويغمدوا جروحهم وينقلوا امواتاهم .

ومن الأمثلة النادرة على البسالة الأعمال التى قام بها القائد المصرى لحصن الاطى الذى وقف فى الخلاء يدير المعركة بشجاعة حتى أصابته قذيفة أطارته اشلاء متناثرة فذهب مجهول الشخصية لم يحفـل التاريخ بذكر اسمه والتنويه به .أنه حقاً « الجندى المجهول » .

۞ ۞ ۞

باتت الاسكندرية فى تلك الليلة المشئومة فى ظلام دامس ، لانور سوى بريق النجوم التى كانت تضطرب لمأساة المدينة ، وغير الأنوار الكشافة التى كانت البوارج البريطانية ترسلها لتتأكد من أن ضحاياها لا يزالون حيث هم ، وأنها فازت فى عدوانها الغادر على مدينة آمنة مطمئنة ، وكان « سيمور » لم يرو عطشه فى ذلك اليوم الأغبر من الدماء

والدمار فلم يكد يصبح اليوم التالى حتى عادت بوارجه الى اطلاق مدافعها ولكنها لم تلبث أن توقفت حين لم تجد من يرد عليها ، وحين رفع العلم الأبيض على وزارة البحرية الساعة الحادية عشرة صباحاً .

وكانت قذائف الأسطول البريطانى قد تعدت الحصون الى المدينة بالرغم من تطمين قائد الاسطول البريطانى قناصل الدول بالاسكندرية مؤكداً لهم أنه سيوجه قذائفه الى القلاع دون غيرها وأنه لا خوف على أحد من سكان المدينة .

وقد ذكر الصحفيون الذين شهدوا المعركة أن القذائف أصابت المساكن الأوربية والمصرية خبط عشواء . وهذا مراســل « الطان » يكتب الى صحيفته الباريسية أن قذائف السفن أصابت مساكن الاوربيين التى كانت بعيدة عن خط القتال وسقطت احداها فى المستشفى الاوربى وكان يسمى أيضاً المستشفى الفرنسى ، وهو اليوم تابع للجيش . كما ذكرت صحيفة « الفار دالكسندرى » انقذيفتين سقطتا فى حديقة ديـر الفرنسيسكان ، وقذيفة بساحة مدرسة أخوة المدارس المسيحية (الفرير) واثنتين بالقرب من دير الايتام .

وزاد فى بؤس المدينة أن اندلعت النيران ، فاستبد باهلها الخوف والهلع وهجروها . وظلت النيران فيها الى ٢٥ يوليو .

وقد بلغ عدد الضحايا من المصريين فى غضون ذينك اليومين الفى قتيل بخلاف الجرحى أما خسائر البريطانيين فلم تتجــاوز حسب ماورد فى

احصائهم خمسة من القتلى و ١٩ من الجرحى : وأصيبت سبع بوارج باضـــرار ؟

۞ ۞ ۞

تلك كانت واقعة الاسكندرية ، مأساة بغى وعدوان ، وتجـــربة للقوة على مدينة لا تملك من وسائل الدفاع ما يمكنها من دفع الهجوم ورد الغير . ولا فخر فى نصر لا مخاطرة فيه من جانب المنتصر .

والاسكندرية لم تستكن لهذا الدمار . فقد عاد الاسكندريون الى مدينتهم بعد قليل ، ولم تمض خمس سنين على ضربها بقنابل الاسطول البريطانى حتى استعادت جمالها ، وقامت العمارات الجديدة فى مختلف أنحائها وسارت فى طريقها من التقدم يوما بعد يوم مستهدفة العمران ومستكملة الرونق والبهاء حتى أصبحت عروس البحر الأبيض المتوسط .

الباب الحادى عشر

معركة راس التين

معركة رأس التين

وطرد فاروق

ان مأساة الاحتلال البريطانى لم تتم فصولها بنزول الجيش الى الاسكندرية بعدضربها بمدافع الأسطول ، وبعد أن فاز الجيش الانجليزى فى معركة التل الكبير ، ونفى عرابى وشرد زملاؤه من زعماء الثورة، واستقرت دعائم العرش الذى يجلس عليه الأمراء من أسرة محمد على الى حين ، فالستار لم يكد يسدل على هذا الفصل الأول حتى ارتفع عن الفصل الثانى الذى ترددت فيه صيحات الانتفاضة وأعمال الثورة ، وجهاد الشعب . وهكذا لم تكد تخفت « أصداء المدافع التى ضربت الأسكندرية وأصداء القتال الباسل الذى طعن من الخلف فى التل الكبير حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لا تموت لهذا الشعب الباسل ، وعن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمصاعب» كما قال السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى ميثاق العمل الوطنى ، وقد قال أيضا أن قوة الاحتلال البريطانى العسكرية ومؤامرات المصالح الاحتكارية والاستعمارية والاقطاع الذى اقامته أسرة محمد على باحتكارها للارض أو اقتسام جزء منها بين أصدقائها أو أصدقاء المستغلين الأجانب، ذلك كله لم يستطع أن يطفىء شعلة الثورة على الأرض المصرية .

« ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة

هذا الارهاب المحكم الذى تسنده قوة الإحتلال الأجنبى والمصالح الدولية الإستعمارية » .

أجل ، فقد بدأت المقاومة منذ بدء الإحتلال . وكانت الإسكندرية ركنا مكينا من أركانها ، وعاملا قوياً فى إيقاظ الوعى القومى ، ومثلا عالياً للتضحية فى سبيل انقاذ البلاد من الأغلال التى قيدها بها الإستعمار والرأسمالية والإحتكار ، والإنتفاض ضد حكم الارهاب والطغيان ، والوصول الى الجلاء ، واستكمال أسباب الإستقلال . وقد كانت الإسكندرية المدينة التى اختارها الزعيم مصطفى كامل لإلقاء أروع خطبه العامرة بالحماس والوطنية . وطالما رددت جدران مسرح « زيزينيا » أصداء صوته الجهورى وبلاغته المشهودة التى كانت تعبر عن روحه المتوثبة واندفاعه فى ايقاظ الوعى القومى ، وإذكاء روح الوطنية ، وذلك بين تصفيق الجماهير الحاشدة لسماع خطبه وهتافاتها المدوية :

واشتركت الاسكندرية فى ثـــورة ١٩١٩ ، وكافحت فى سبيل المطالبة بالجلاء وسالت دماء أبنائها الذكية ، بل أنها خاضت وحدها غمار معركة قد تبدو صغيرة فى نفسها ولكنها كانت ذات أثر كبير لأنها كانت فى طليعة الاسباب التى أدت الى جلاء القوات البريطانية عن المدن الكبيرة وخاصة القاهرة والاسكندرية :

كان « كركول الانجليز » قذى فى عيون الإسكندريين الذين وطالما ركزوا هجومهم عليه فى ثورة ١٩١٩ وما بعدها . ولما أزيل سنة ١٩٣٧ استعاض الجيش

البريطانى عنه بمخفر أقيم فى ميدان سعد زغلول ، حيث النصب القائم اليوم تخليداً لذكرى الشهداء الذين سقطوا يوم اقتحمه المتظاهرون يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٦ ؛ فقد ثارالاسكندريون فى ذلك اليوم المشهود وهاجموه فى وجه نيران شديدة مركزة من الاسلحة السريعة الطلقات ، وكانت مشاهد ملتهبة غمرت المنطقة والشوارع المؤدية اليها وسقط من المواطنين عشرات من القتلى وأضعافهم من الجرحى : ولكنهم ظفروا على كل حال بازالة « نقطة البوليس الإنجليزى الحربى » قوة واقتداراً . فكان أول جلاء فعلى للأحتلال البريطانى باشره شعب الإسكندرية بنفسه وحققه بدمائه وشهدائه .

❀ ❀ ❀

يجب أن نشير هنا الى تلك الحملات الجوية التى امتحنت بها الاسكندرية أبان الحرب العالمية الثانية ، وكانت أولاها ليلة ٢٨ من يوليو سنة ١٩٤٠ . وبلغت أشدها ليلة ٨ من يونيو سنة ١٩٤٢ ؛

وكانت المانيا ترى أن تضرب بريطانيا فى مصر وأن تقطع المواصلات بينهما وبين مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا عن طريق قناة السويس ؛ وكانت بريطانيا قد جعلت من الاسكندرية قاعدة بحرية قوية : وقامت فيها استحكامات منيعة ؛ لذلك ظلت المانيا توالى هجماتها الجوية الليلية على الأسكندرية . فتقض مضاجع سكانها فينفرون الى المخابىء هربا من تلك القنابل التى كانت تحمل الموت والدمار .

وكان السخط يملأ قلوب الاسكندريين على الأستعمار الذى كان السبب فى هذه المحنة التى أبتلوا بها فى حين لا شأن لهم بالحرب القائمة ولا حيلة لهم فى دفع ذلك الويل .

وقد ظلت الهجمات الليلية تتوالى على الاسكندرية مادامت الدولتان الفاشيتان المانيا وايطاليا مسيطرتين على القطاع الشرقى من البحر الابيض المتوسط وما دامت الحرب دائرة فى الصحراء الغربية وقوات « روميل » تواصل هجومها على مصر حتى وصلت المعركة الى مشارف الاسكندرية ثم زالت الغمة بعد اندحار قوات «روميل» فى معركة العلمين وابتعاد القوات الألمانية نهائياً عن مصر .

وقد نتج عن تلك الهجمات الجوية تدمير بعض ابنية الاسكندرية وقتل عدد من سكانها الآمنين .

وتحملت الاسكندرية هذه المحنة التى ابتلاها بها الاستعمار برباطة جاش وصمدت على عادتها للهجمات الجوية ببسالة وشجاعة .

❁ ❁ ❁

بمثل هذه الروح العالية ، وذلك الإندفاع الطبيعى لدى الإسكندريين فى كل مايتعلق بشئون الوطن استقبل الشعب الثورة ، ورحبوا بها ، واعتبروا أنفسهم مجندين لها منذ اللحظة الأولى . وما أن رأى الاسكندريون الجيش يحيط بقصر رأس التين صبيحة يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ حتى اندفعوا يحيطون به ، ويهتفون له ، ويبدون استعدادهم لتأييده فى النضال الذى استعدله لإزالة حكم الطغيان عن مصر وطرد الملك الغاشم من هذه البلاد الطيبة التى طالما عاث فيها هو وأسلافه جوراً وفساداً .

كان الضباط الاحرار برئاسة جمال عبد الناصر قد قرروا القيام بالثورة ، وعينوا لها موعدها عند منتصف ليلة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . وقد ظل القرار سراً مطوياً حتى نفذ بدقة واستولى الضباط على جميع الثكنات وانضمت اليهم جميع القوات . وأخذوا منذ صبيحة ذلك اليوم

يعلنون طلباتهم واحداً بعد الآخر منها استقالة الوزارة ، وكان يتولاها نجيب الهلالى ، وتأليف على ماهر وزارة جديدة ، وابعاد ستة من حاشية فاروق ، وأخيراً تنازل فارق عن العرش . .

وقد استعد الضباط الأحرار لهذا المطلب الاخير فى حالة تمنع فاروق عن الاذعان له : فارسلوا قوة من الجيش بمدافعها و دباباتها و أسلحتها وذخيرتها إلى الاسكندرية وكانت القوات البحرية والبرية المرابطة بالأسكندرية قد أنضمت الى الثورة ، فجاءت الوحدة الجديدة التى أرسلت الى الاسكندرية مدعمة للقوات الموجودة فيها .وقد قيل رسمياً يومئذ أنها أرسلت للمساعدة على حفظ النظام و الأمن ولكنها كانت فى الحقيقة للاستعداد لخلع فاروق . و تولى زكريا محيي الدين قيادة التحركات الحربية بالأسكندرية .

كان فاروق يوم اعلان الثورة يقيم بقصر المنتزه . ولكنه رأى مساء يوم الاثنين ٢٥ يوليو أن ينتقل الى قصر رأس التين ، ولعله ظن أن هذا القصر امنع له من الاول ، وأنه يستطيع الهرب منه . ولكن هيهات بعد انضمام القوات المصرية بمختلف أسلحتها الى الثورة .

ولم يكد يبزغ فجر يوم السبت ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ حتى كانت بعض قوات الجيش ومعها أسلحتها ودباباتها قد حاصرت قصر رأس التين ، وحتى قدم ضباط الثورة طلبهم بتنازل فاروق عن العرش.

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ » أنه عندما حاصرت قوات الثورة قصر رأس التين وغيره من القصور الملكية بالأسكندرية والقاهرة فكر فاروق بالمقاومة ولكنه لم يلبث

أن أقلع عن رأيه بعد ان شاهد جموع الشعب المتراصة وراء الجيش المحاصر القصر تهتف له وتتحفز لتأييده :

وجرى أثناء حصار القصر أن خرجت رصاصة طائشة من مدفع كان مركباً باحد أبراج القصر فلم تر القوات المحاصرة بدا من اسكات هذا المدفع . وقد أصيب ستة من جنود الحرس بجراح ولم يصب أحداً من رجال الجيش بسوء .

وخضع فاروق لمطالب الثورة واستسلم لها ، ووقع وثيقة التنازل عن العرش ، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى كان قد أقله يخت « المحروسة » بعيداً عن شواطىء مصر ؛ كما كان قد أقل جده اسماعيل من قبل .

وبذلك انجابت غيوم الاستبداد والطغيان عن سماء مصر ، وأشرقت شمس الحرية والانطلاق . وزال بزوال الطغيان عهد الاستعمار وعملائه ووكلائه ، وكان هذا الحدث العظيم نقطة تحول فى تاريخ مصر . فودع الشعب المصرى عهداً مليئاً بالذل والخنوع واستقبل عهداً كله عزة وفخار :

وسارت مصر فى هذا الطريق السوى بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر لتحقق الآمال التى عقدتها على حكومة الثورة وتصل الى ماتصبو اليه من خير وتقدم وعلاء :

وبعد ...

كان الاقدمون يضعون اكليلا من غار على رأس القائد المنتصر عند أوبته من ساحة القتال . وليست هذه الذكريات التى جلوناها، والصفحات الخالدة التى بسطناها ؛ سوى ذلك الاكليل ، اكليل البطولة والفخار، نزفه الى الاسكندرية الباسلة التى وقفت فى وجه العدو فى ساعة الخطر، ويجب أن تقف اليوم إلى جانب المنتصر فى أعياد الثورة .

لقد ساهمت الاسكندرية فى الجهاد ضد الأجنبى المحتل ، وأدت قسطها من النضال ، وقدمت ضريبتها من الدم البرىء المهدور ، حتى تم للبلاد ما كانت تصبو إليه على أيدى صفوة من أبنائها البواسل الأحرار ، فحق لهم الحمد والثناء ، كما حق للاسكندرية أن تمجد فى أعياد الثورة وما تفيضه على البلاد من بهجة وإشراق وبهاء .

مراجع الكتاب

كان حريا بنا أن نذكر مراجع الكتاب على ما جرى عليه الأدباء والباحثون عند معالجتهم الموضوعات التاريخية من مثال ما عرضنا له ولكنى بعض فصول هــذا الكتاب وضعت فى أوقات متباعدة وتحت تأثيرات مختلفة متنوعة : وأغفل فى الكثير منها ذكر المراجع ، وضاعت معالمها . فرأيت الإستغناء عنها اجمالا والإكتفاء بالقول بأنها لا تخرج عن كتب التاريخ العام وبعض كتب التاريخ الخاص من عربية وفرنسية وقد ذكرت بعضها فى غضون الحديث ؟

فهرس الكتاب